سيد محمود القمنى

النبى ابراهيم
والتـــاريخ المجهــــول

الناشر: مدبولى الصغير

وجئت آخر الأمر إلي الأقصر أو بعبارة أصح إلي مدينة الآثار، إلي الكرنك، وفيها تبدت لي عظمة الفراعنة بأكملها، وشاهدت كل ماتصوره الناس وما أخرجوه في أكبر صورة، ومامن شعب قديم أو حديث - غير قدماء المصريين - قد صور لنفسه فن العمارة بهذا السمو، وهذه العظمة، وهذه الفخامة.

لقد كانوا يفكرون كما يفكر الجبابرة الذين تبلغ قامة الواحد منهم مائة قدم.

شامبليون
في ١٨٢٨م

النبى ابراهيم
والتاريخ المجهول

دراسة تحاول

□ كشف التاريخ المزيف فى علاقة النبى إبراهيم بفلسطين

□ إضاءة المعتم فى علاقة النبى إبراهيم بالمصريين

□ الوصول إلى الموطن الحقيقى للنبى إبراهيم وخط السير الصادق لارتحالاته فى المنطقة

مدبولى الصغير

١ تأسيس

لا مراء أن شخصية النبي إبراهيم عليه السلام، تعد واحدة من أهم الشخصيات في التاريخ الديني، فقد بلغ هذا النبي منزلة لانزاع حولها في الأديان الكبري الثلاثة، التي أفرزتها المواطن السامية شرقي المتوسط، اليهودية والمسيحية والإسلام، وتوطئة للبحث وراء ارتحالات النبي إبراهيم عليه السلام، والتي أدت ـ حسبما يخبرنا به التاريخ الديني ـ إلي نشوء علاقات بينه وبين أهل المنطقة، وماتبع ذلك بالضرورة من تفاعل جدلي في الفكر والثقافة والمعتقدات، نهيىء السبيل برؤية مكثفة وموجزة، لوضع النبي إبراهيم في الديانات الثلاث.

* فهو عند العبريين: أهم الآباء الأوائل للشعب العبري، وهو أب لسلسلة من الأبناء كانوا جميعا ذوي علاقة حميمة بالإله، وأنه يعود بموطنه إلي مدينه (أور الكلدانيين) علي شاطيء نهر الفرات، وأنه قد هاجر من موطنة (أور UR)في العراق القديم، علي رأس قبيلته يبغي الذهاب إلي أرض كنعان، المفترض أنها أرض فلسطين الحالية، وأنه في كنعان التقي بربه، وهو الرب المعروف في التوراة بالاسم (إيل) أو (إل) ـ وإليه تنسب الأسماء مثل جبرائيل وميكائيل وإسرائيل وإسماعيل... الخ ـ ويفترض الباحثون أنه أصل لفظ الجلالة في اللغة العربية (إله ـ ألله).

وتذهب التوراة إلي أن الرب (إيل) قد اتخذ من النبي إبراهيم خليلا (خل ـ إيل) ومن ثم أقطعه ونسله من بعده أرض كنعان خالصة لهم، أو بنص التوراة:

وقال الرب لإبرام: ارفع عينيك
وانظر إلي الموضع الذي أنت فيه،
شمالا وجنوبا وشرقا وغربا،
لأن جميع الأرض التي أنت تري،
لك أعطيها، ولنسلك إلي الأبد.
سفر التكوين: ١٣: ١٤، ١٥.

ونص آخر يقول:

وأعطي لك ولنسلك من بعدك
أرض غربتك، كل أرض كنعان،
ملكا أبديا، وأكون إلههم.
سفر التكوين: ١٦: ٨.

والواضح في هذه النصوص ـ ومثلها كثير في التوراة المتاحة الآن ـ أن النبي قد جاء أرض كنعان غريبا عنها «أرض غربتك» بقصد استيطانها، وعندما وصلها، منحها له رب التوراة (إيل).

ومع متابعة النص التوراتي، نجد (إيل) يوسع علي خليله، ويزيد من مساحة الأرض المقطعة للنسل الإبراهيمي، وفق ميثاق وضعت فيه حدود الأرض ونصه:

وفي ذلك اليوم، قطع الرب
مع إبرام ميثاقا قائلا: لنسلك
أعطي هذه الأرض، من نهر مصر،
إلي النهر الكبير نهر الفرات.
تكوين: ١٥: ١٨.

وتم توثيق هذا العهد حسب الرواية العبرية بين (إيل) و(إبراهيم) بعلامة شاهدة وخاتم لايمحي[١] أصبح فيما بعد منسكا وفريضة علي كل يهودي، هو الختان وقد جاء ذلك في النص القائل:

وقال الله لإبراهيم: أما أنت فتحفظ عهدي بيني وبينكم،
يختتن كل منكم، كل ذكر، فتختتنون في لحم غرلتكم،
فيكون علامة عهد بيني وبينكم، فيكون عهدي في لحمكم
عهدا أبديا.

تكوين: ١٦ : ٩ ـ ١٣.

وبموجب هذه المجموعة من الحيثيات، فإن التوراة قد وضعت للقبيلة العبرية عدة قواعد: أهمها أن النبي إبراهيم هو أب العبريين جميعا، وأنهم تحدروا من صلبه خلفا عن سلف، وأنه تمكن بصداقته للرب (إيل) أن يضمن لهم أرضا خاصة، لم تكن أرضهم أصلا، إنما وفدوا عليها، وأن الشاهد علي صدق ماحدث هو بصمة الختان،

١ ـ تعمدنا هنا استخدام تعبير: أن تلك العلامة الشاهدة (خاتم) لاتمحي، فالخاتم هو الختم، ولنلحظ العلاقة اللغوية بين: (ختن) و(ختم)، واستبدال الميم بالنون، وبالعكس فكلاهما دال علي الآخر، فالختن هو الختم، وخاتم الختان أو الختن، بما له من استدارة، وعلاقة الكلمة بخاتم الزواج.

التي وثقت العقد، حتي أمست هذه العلامة البدنية مصدر اعتزاز لكل يهودي، وبحيث عدوها نيشان شرف يتميزون به علي العالمين.

* وهو عند المسيحيين: لايقل رتبة عنه عند اليهود، لأن إنجيل (متي) يقرر أن إبراهيم هو الجد الأعلي ليسوع المسيح، ومتي يصف إنجيله من البداية: أنه «كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم ـ متي ١ : ١». ولوجه الحق فإن مايستعصي علي الفهم هنا هو: كيف يتفق أن يكون المسيح من نسل إبراهيم، مع جوهر الاعتقاد المسيحي وأساسه الأول، والمعلوم أن المسيحية تعتبر يسوع المسيح إلها ليس له أب بشري، وإذا حاولنا التملص باحتساب هذه الأبوة الإبراهيمية للمسيح، إنما تأتي عن طريق أمه (مريم)، فإن الإنجيلي (متي) لايترك لنا هذه الفرصة، فيؤكد الأبوة الإبراهيمية ليسوع المسيح عن طريق آخر، ويرصد لذلك سلسلة من نسب الأبناء والأحفاد، تمتد من إبراهيم ـ مرورا بداود وسليمان ـ حتي تصل إلي (يوسف النجار) الذي يصفه بأنه «رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعي المسيح».[١]

وتأسيسا علي ذلك فإن إبراهيم هنا، سيكون أيضا أبا لكل المسيحيين، لأن المسيحيين حسب العقيدة المسيحية، إنما هم جميعا أبناء ليسوع المسيح، وذلك عن طريق الإيمان به، وبموته علي الصليب، وبقيامته، وبأن لاهوته لم يفارق ناسوته ولا لحظة واحدة[٢] ومن هنا كان نداؤهم الجهير: «أبانا الذي في السماوات»، وعليه فإن جميع المسيحيين أبناء لإبراهيم عبر الإيمان بحفيده يسوع.

ومن ثم تصدق المسيحية بالروايات التوراتية حول خروج النبي إبراهيم من (أور الكلدانيين) إلي أرض فلسطين الكنعانية، فيقول سفر أعمال الرسل الإنجيلي: «ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم قبلما سكن حاران، وقال له: اخرج من أرضك ومن عشيرتك، وهلم إلي الأرض التي أريك، فخرج من أرض الكلدانيين وسكن في حاران، ومن هناك نقله بعدما مات أبوه إلي هذه الأرض، التي أنتم ساكنون فيها ـ ٧:٢ ـ ٤».

* وهو عند المسلمين: خليل الله النبي الكريم، أب الأنبياء جميعا، فقد انحدر من صلبه سلسلة من الأبناء والأحفاد، وأحفاد الأحفاد، يحملون بذرة النبوة، ومن ثم كانوا سلسلة من الأنبياء وهو ماتشير إليه الآيات القرآنية دون لبس، وذلك في قوله تعالي: ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ ـ ٢٧ ـ العنكبوت، وهو في الآيات خليل الله ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ ـ ١٢٥ـ النساء، أما الأهم من ذلك كله، فإنه كان

---

١ ـ انظر رصد سلسلة هذا النسب بطول الإصحاح الأول من إنجيل متي.

٢ ـ اللاهوت يعني الأصل الإلهي، أما الناسوت فيعني البشرية، أو النسب الإنساني.

غريبا علي بلاد العرب.[1] ومع ذلك فقد نالت هذه البلاد من نسله نصيبا، بعد أن زارهم وترك فيهم ولده إسماعيل، ثم عاد إلي زيارته في بلاد العرب الحجازية بعد يفوعه، حيث قاما بإعادة بناء البيت الإلهي (الكعبة) في مكة الحجازية، والذي كان مقدسا لدي عرب الجاهلية قبل الإسلام، وقد أوضحت الآيات ذلك بقولها: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ ـ ١٢٧ ـ البقرة، لكن ربما كان أخطر ماقرره القرآن الكريم بشأن النبي الخليل، هو أنه المؤسس الأول لملة الإسلام، وإعلانه السافر والمتحدي: ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وماكان من المشركين ﴾ ٦٧ ـ آل عمران.

وبذلك قطع القرآن الكريم بشأن النبي إبراهيم، وقصته في القرآن الكريم معروفة، لاتحتاج إلي مزيد شرح أو تفصيل، إلا أن الأمر فيه إشكالية دعت إلي بحثنا هذا (وربما إشكاليات) فالتوراة تصر من جهتها علي الصمت المطبق إزاء ما أعلنه القرآن الكريم، حول علاقة النبي إبراهيم ببلاد العرب الحجازية، فلم يرد لهذا الأمر أي ذكر في التوراة المتاحة بين الأيدي اليوم، وهو بحد ذاته مدعاة للتقصي، إزاء ماورد في الإسلام عن علاقات حميمة وأساسية وجذرية للنبي إبراهيم بجزيرة العرب وديانة الإسلام، خاصة مع علمنا أن التوراة قد انتهت كتابتها قبل تسعة قرون من الميلاد في بعض أسفارها، في أبعد تقدير وقبل قرن واحد من الميلاد في أقرب تقدير لأسفار أخري، بمعني أنها قد حازت في معارف الإنسان قصب السبق، ممايدعو للوقوف مع مسألة هبوط النبي إبراهيم (عليه السلام) بلاد الحجاز، وجهل التوراة بهذا الأمر، بغرض الوصول إلي المصداقية، حسب مقررات المنهج العلمي، وماتتطلبه شروط هذا المنهج الصارمة من قرائن وأدلة، لدعم الرؤية الصادقة، ومن هنا سنضطر إلي التأني مع قصة التوراة عن الخليل، وبحثها بحياد العلم، علها تكشف لنا في الأمر أمرا، وهذا بحد ذاته سبيل وعر، وعروج محفوف بالمحاذير والصعوبات، وربما كان قطع القرآن الكريم في الأمر، مدعاة للتساؤل حول جدوي مثل هذا البحث أصلا؟!

لكن وجه الإشكال لايقتصر علي عدم إشارة التوراة لزيارة النبي الخليل إلي البلاد

---

١ ـ يقول (السهيلي) : إن النبي إبراهيم كان سريانيا من حاران، وأنه كان يتكلم اللغة السريانية، ثم تحول إلي اللغة العبرانية عند عبوره النهر (يقصد عبور نهر الأردن، ويعني عند نزوله أرض كنعان، ومن المعلوم أن اللغة العبرانية كانت لغة الشعب الكنعاني).

انظر: الروض الأنف، في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ضبط وتعليق طه عبدالرءوف بيروت، د. ج١، ص١٦.

الحجازية، فهناك تفاصيل أخري عديدة، وردت في القرآن الكريم ولم ترد في التوراة، وأمثلة لها قصة تكسير النبي إبراهيم لأصنام قومه، أو مثل قصة إلقائه في النار، أو مثل خلافه مع أبيه حول صادق العقيدة، أو مثل حواره مع الملك المذكور في التراث الإسلامي باسم (نمروذ) وفي المقابل نجد تفاصيل هائلة بالتوراة لم ترد بالقرآن الكريم، ولايفوتنا هنا أن نذكر: أن القس المبشر (د.ف.ب.ماير) لم يجد حرجا في الاستفادة من الروايات الإسلامية، رغم عدم ورودها في التوراة، فيقول عن النبي إبراهيم: «وإذا صحت الروايات التي تقال عنه، وهي بلاشك تستند إلي شيء من الصحة، إن لم تكن كلها صحيحة، تبين لنا أنه منذ البداية كان يتصف بأخلاق غير عادية، وتتضمن هذه الروايات أن إبراهيم لما كان شابا، قاوم - بعنف - تيار الشر الذي جرف إلي لجه كل البلاد، بل غمر بيت أبيه أيضا (لاحظ أن ذلك الكلام لم يرد به أي نص توراتي - والإشارة من عندنا) ثم إنه أشهر في وجه تلك الممارسات الشريرة سلاح الهزء والسخرية، ثم إنه كان كلما رأي تمثالا حطمه، وكان يأبي أن يجثو للنار، وهذه الروايات لاتستند إلي أية إشارة في الكتاب المقدس، علي أنه من الناحية الأخري لاتوجد فيه أية إشارة تنفيها»[١]

---

١ ـ د.ف.ب. ماير: حياة إبراهيم وطاعة الإيمان، ترجمة القس مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة. ط٢، ١٩٨٠، ص١٤، ١٥.

تأسيس

لكن يظل التساؤل: وما الداعي لبحثنا هذا؟ ومن ثم نرصد مزيدا من الدواعي والدوافع، فرغم الاختلافات بين التوراة (المسلم بها من جانب المسيحيين كمقدس) وبين الإسلام فإننا نجد الأديان الثلاثة (اليهودية والمسيحية والإسلام) في جانب، وعلم التاريخ في جانب آخر حيث نجد هذا العلم لايعلم من وثائقه الأركيولوجية والآثارية شيئا البتة عن النبي إبراهيم، ورغم اتفاق القصة التوراتية مع قصص الإخباريين المسلمين حول موطن النبي إبراهيم الأصلي، والتي تقول: إنه هاجر من موطنه الأصلي في بلاد الرافدين إلي فلسطين، وأنه زار مصر زيارة مهمة وخطيرة، و«كانت هذه الزيارة لمصر أساسا للثروة الطائلة التي تمتعت بها ذريته فيما بعد»(١) فيما يقول المستر (ماير)، فإنه لم يعثر حتي الآن علي أي دليل آثاري، سواء كان كتابة أو نقشا، أو حتي نقش يقبل التفسير، أو في نصوص تقبل - حتي - التأويل يمكن أن يشير إلي النبي وقصته سواء في آثار وادي النيل، أو آثار وادي الرافدين، علي كثرة ما اكتشف فيهما من تفاصيل ووثائق.

وهذا بدوره سبب كاف لدعم دوافع باحث مهتم، كي يضع المسألة كلها قيد البحث، خاصة أن عدم معرفة علم التاريخ بهذا النبي، رغم حضوره الكثيف في الديانات الثلاث، قد أدي ببعض الباحثين إلي حسبانه شخصية أسطورية، لاتمت لعلم التاريخ بصلة، حتي أن هذا البعض قد احتسب جميع قصص البطاركة القدامي، مجرد قصص خرافية لاظل لها من حقيقة، وقام منهم من يدلل علي أن أسماء هؤلاء إنما كانت أسماء لشخصيات إلهية في عبادات قديمة، وأن أساطيرها كانت متداولة قبل التوراة، في القصص الأسطوري لبلاد كنعان، وأن العبريين عندما جاءوا أرضهم وورثوها، ورثوا معها تراثها، فوجد هذا التراث طريقه إلي التدوين في التوراة، كقصص لأنبياء بني إسرائيل، بينما يشير آخرون بخصوص النبي إبراهيم،

إلي أسطورة باسم (براما) كانت واسعة الانتشار قبل ظهور العبريين، وعرفت في بلاد إيران والهند وماحولها، وأنها أصل عقيدة (براهما) الهندية، وأن العبريين بدورهم قد تبنوا هذه الأسطورة وحولوها إلي شخصية إنسانية، واحتسبوا (براما) جدهم البعيد، تأسيسا علي منهج التدين القديم، القائم علي تقديس الأسلاف.[1]

وكان عدم وجود الدلائل التاريخية مدعاة، لأن يقول باحث مثل (فلهلم رودلف) إن حفاوة القرآن الكريم بالنبي الخليل، ترجع إلي محاولة النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) تألف قلوب يهود يثرب مع القوة الإسلامية الطالعة، وعندما فشلت المحاولة، أخذه من الجميع عنوة واقتدارا، وزعم أنه جده البعيد، وجد جميع العرب المسلمين ومؤسس العقيدة الإسلامية.[2] ولعلنا لم نزل بعد نذكر تلك الضجة الكبري التي ثارت حول ماكتب عميد الأدب العربي (طه حسين)، ويشبه إلي حد بعيد ماذهب إليه (فلهلم رودلف) حيث يقول: «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا ايضا، لكن ورود هذين الاسمين في التوراة، لايكفي لإثبات وجودهما التاريخي، ونحن مضطرون إلي أن نري **في هذه القصة نوعا من الحيلة، في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهةأخري..**»[3]

والآن: هل لم يزل ثمة مدعاة للتساؤل حول جدوي بحثنا هذا؟.. ولعل التساؤل حول الجدوي، تلحقه اعتبارات تقلل من قيمة البحث ونتائجه، تأسيسا علي عدم وجود أية مصادر تاريخية تشير إلي إبراهيم، سواء في مصر أو الرافدين، ومن ثم ستكون أية محاولات هي مجرد تخمينات وافتراضات، تنتهي بدعم أولئك أو هؤلاء، حقيقة نحن مضطرون هنا إلي الاعتراف بعدم وجود الأدلة المباشرة، مماسيلجئنا إلي استخدام كل مايخدم بحثنا من مناهج، والتعامل مع النصوص بأسلوب التحري والمباحثية، لتجميع مايلزم من قرائن، يمكن إذا تجمعت أن تكتسب ثقل الأدلة، التي يمكن أن تدلنا علي الطريق القويم والنتائج الأقرب إلي الصدق.

وهنا ستجدنا مضطرين إلي اللجوء للتوراة الحالية (ولامفر) وكتب التراث

---

١ ـ عصام الدين حفني ناصف: اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج، بيروت، ١٩٨٥، ص١٣١، ١٣٢.

٢ ـ د. فلهلم رودلف: صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت ط٢، ١٩٧٤.

٣ ـ طه حسين: في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، ١٩٢٦، ص٢٦.

الإسلامية، إضافة بالطبع إلي القرآن الكريم والحديث الشريف، وإن لجوءنا للتوراة قد يلقي الاعتراض من بعض المهتمين، لكن لذلك أسبابه ووجاهته التي ستتضح في حينه، علما أن التوراة - بعكس القرآن الكريم تماما - فهي كتاب في التاريخ في المقام الأول، وكتاب في الدين في المقام الثاني (مع ملاحظة أن هذا التاريخ قد تمت صياغته وفق أهداف أصحابه وخططهم)، حتي إن التاريخ يشكل - دون مبالغة - أكثر من ثمانين بالمائة، من مجموع صفحات العهد القديم المكتظ بالأسفار، وتزيد صفحاته علي ألف وثلاثمائة صفحة، أما بالنسبة لكتب الأخبار الإسلامية، فقد لجأت لذات التوراة الموجودة بين الأيدي اليوم، واستقت منها تفاصيل هائلة كما وكيفا، بحيث أصبحت هذه التفاصيل مرجعا إسلاميا للمسلمين، لورودها في أمهات الكتب الإسلامية وتشكل كما هائلا داخل هذه الكتب.

وقد أدرك زعيم طبقة كتاب الأخبار والسير (الحافظ ابن كثير الدمشقي) حساسية الأمر، ومع ذلك اعتمد كثيرا من الأخبار التوراتية، لذلك نجده يبدأ مقدمة مؤلفه الموسوعي (البداية والنهاية) بتقديم مبررات الاعتماد علي الإسرائيليات، فيقول:

ولسنا ننقل من الإسرائيليات إلا ما أذن الشارع في نقله، مما لايخالف كتاب الله وسنة رسوله (صلي الله عليه وسلم) وهو القسم الذي لايصدق ولايكذب، ممافيه بسط لمختصر عندنا، أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا، مما لافائدة في تعيينه لنا، فنذكره علي سبيل التحلي به، لا علي سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه

ثم يدلي (ابن كثير) بسنده الشرعي للأخذ من التوراة، حتي لايقع عليه لوم أو تثريب، فيورد حديث النبي محمد (صلي الله عليه وسلم):

« بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولاحرج، وحدثوا عني ولاتكذبوا، ومن كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »

ثم يعقب علي الحديث بالقول:

فهو محمول علي الإسرائيليات المسكوت عليها عندنا، فليس عندنا مايصدقها ولايكذبها، ويجوز روايتها للاعتبار، وهذا هو الذي نستعمله في كتابنا هذا[1].

وهكذا يعي (ابن كثير) حجم المعارضة التي قد يلقاها من المسلمين نتيجة لجوئه إلي الإسرائيليات، فيقرر - بداية - للجميع أنه لن ينقل منها إلا ماوافق الشرع، ولم يخالف الكتاب والسنة، ثم يصف ماحشا به مؤلفه الهائل من إسرائيليات، بأنها -

١ - الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت ط٤، ١٩٨٨، ج١، ص٥.

نحم - وردت في التوراة، لكن لم يصدر بشأنها حكم إسلامي بالصدق أو الكذب، ولعل (ابن كثير) كان واضحا تمام الوضوح، وصريحا كل الصراحة، وهو يورد الأسباب التي دعته للأخذ بالإسرائيليات، وهي أولا: أنه قد جاء في الإسلام أمور مختصرة تحتاج لمزيد شرح وتفصيل «ممافيه بسط لمختصر عندنا»، وثانيا: إعطاء الأسماء والإيضاحات لأمور وردت في الشرع الإسلامي لكنها غير مفهومة «تسمية لمبهم ورد به شرعنا»، أما لماذا كانت مبهمة وغير مفهومة في الإسلام؟ فهو مايجيب عنه بالقول: لأنه «لافائدة في تعيينها لنا»؟!

وهنا نقف مندهشين من أمر هذا الكاتب الجليل، فإذا كان القصد من شرعنا في اختصاره وإبهامه أنه لافائدة من تعيينه لنا، وكانت تلك قاعدة، فلماذا إذن تجاوزها ابن كثير الدمشقي، وصحبه، ومن ضرب في دربه من الإخباريين المسلمين وهم كثير؟! الأمر إذن ليس بقاعدة دائمة الحضور، ولاريب أنه بعد مرور ستة قرون منذ زمن النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) وحتي عصر ابن كثير، كانت كفيلة بظهور إشكاليات لم توجد زمن النبوة، ومن هنا احتاجت طبيعة المجتمع الجديد إلي تفصيل المختصر وبسط المبهم، ولاينسي الحافظ ابن كثير أن يشير بحذر واضح إلي أن التفاصيل المأخوذة من التوراة إنما جاءت «علي سبيل التحلي بها لا علي سبيل الاحتياج إليها»، بينما الواضح أنه قد أورد مقدما أسباب هذا «الاحتياج إليه» وظروفه، خاصة أنه لجأ إلي حجة أخري غير مجرد التجمل والتحلي، فيقول: إنه لجأ إلي إسرائيليات مسكوت عنها في الإسلام، ولم يصدر بشأنها قرار واضح المعالم، لذلك وجبت روايتها «للاعتبار» والاعتبار يعني الفائدة الحكمية منها، وأخذ العبرة والعظة، إضافة إلي مايحمله تعبير «الاعتبار» من معني عدم الإهمال والتغاضي عنه، والإقلال من شأنه.

وإذا كان عصر ابن كثير بعد ستة قرون من النبوة قد اضطره إلي اللجوء للتوراة، فإن عصرنا بعد أكثر من أربعة عشر قرنا، **قد أصبح يحتاج إعادة نظر في الأمر برمته**، وبخاصة في إسرائيليات التراث الإسلامي، التي كانت توراتية الأصل، وأصبحت منذ عهد الإخباريين المسلمين تراثا إسلاميا بحتا.

وإعمالا لكل ذلك، فإن لجوءنا للتوراة، لبحث الإشكاليات المثارة في بحثنا هذا، حول النبي إبراهيم (عليه السلام)، والتي ربما كانت التوراة ذاتها سبب إثارتها الأساسي، ليس ابتداعا من جانبنا لجديد، لكن الرجوع من جانبنا للتوراة، لن يكون لمجرد التحلي بها، فهي في بحثنا هذا طرف جدلي، يسبب إثارة المشكلة، ويشارك في

حلها ولو مضطرا، مع الاستعانة بكتب التراث الإسلامية، التي لم تكن بالطبع مجرد تابع أمين للتوراة، إنما خالفت هنا، وقالت كلمتها هناك، كما أنه قد ورد عند الإخباريين المسلمين مانزعم أنه ليس مجرد أساطير الأولين، ومخاريق الأقدمين، بل فيه للباحث المدقق إشارات واضحة إلي سبل عدة، يمكن لو استقرأها واستشرفها أن تهدي إلي إضاءات وكشوف، شرط الالتزام بصرامة شروط المنهج العلمي، وماتفرضه من وجوب محاكمة النصوص محاكمة عادلة، ليتمكن في النهاية من استصفاء مايتفق ومنطق الحدث، وزمانه، ومكانه، وظروفه.

ولانزعم هنا قدرة حل جميع الإشكاليات المطروحة، إنما سنحاول فقط، وربما أثرنا أثناء البحث إشكاليات جديدة، لكن بحثنا هذا علي أية حال، هو توجيه - في المقام الأول - إلي باب حان ولوجه، ووجب أن يقوم له فرسانه من الباحثين، وهم لاشك كثيرون وربما قبل ذلك نبهونا إلي أننا قد أصبنا هنا، أو أخطأنا هناك، وربما وافقنا البعض، وربما خالفنا الكثيرون، لكن الذي لاخلاف حوله، أنه في ساحة البحث العلمي متسع للجميع.

الهجرة إلى فلسطين

عبر خمس وعشرين آية، من الإصحاح الحادي عشر بسفر التكوين، تثبت التوراة نسب النبي إبراهيم (عليه السلام) وتصعد به عبر أسلافه حتي تصله بسام بن نوح، مع تفصيل وشرح يتعلق بعمر هذا الفرد أو ذاك، من شجرة العائلة، يمكن اقتضابها جميعا في القول: إن النبي إبراهيم هو:

إبرام، ابن تارح، ابن ناحور، ابن سروج، ابن رعو، ابن فالج، ابن عابر، ابن شلح، ابن ارفكشاد، ابن سام، ابننوح.

تكوين: ١١: ١٠ ـ ٢٦

وأول ذكر للنبي إبراهيم (عليه السلام) في التوراة يأتي في سياق حديثها عن هجرة قادها أبوه (تارح ابن ناحور) مع أفراد عائلته، من موطنهم الأصلي، فتقول:

وأخذ تارح إبرام ابنه، ولوطا ابن هاران ابن ابنه، وساراي كنته، امرأة إبرام ابنه، فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلي أرض كنعان، فأتوا إلي حاران وأقاموا هناك، ومات تارح في حاران.

تكوين: ١١: ٣١ ـ ٣٢

ويفهم من هذه الرواية:

ـ أن قائد هذه القبيلة المرتحلة، كان هو (تارح) أبو النبي إبراهيم، وأن زوجة النبي إبراهيم كانت تدعي (ساراي) وأنه كان له أخ يدعي (هاران) لم يكن مع المرتحلين، إنما كان ولده (لوط) هو رفيق ترحال عمه إبراهيم، وهو مادفع المفسرين للقول: إن (هاران) قد مات في (أور) وهو مايقول به (ماير).

ويذهب في قوله ـ مخالفا النص ـ إلي أن إبرام كان هو قائد الرحلة وليس الأب (تارح) فيزعم أن إبرام «أخذ أباه تارح، فخرجوا من أور الكلدانيين، ونحن لاندري كيف ارتضي تارح أن يترك وطنه العزيز، ومقابر موتاه، حيث رقد هاران ابنه، واضح علي الأقل أنه لم يكن جادا في السير، ولا كانت البواعث التي دفعته للمسير صافية، ولهذا كانت مرافقته لإبراهيم سببا في تعطيل مسيره...»[١]، ولما لم يكن في التوراة أية إشارة تدفع إلي مثل هذه الاستنتاجات، فمن الواضح هنا أن (ماير) قد تأثر بالروايات الإسلامية حول مخالفة الابن لأبيه في العقيدة، وهو ما لا يمكن الخروج به من التوراة إطلاقا، حتي ولو من باب التأويل.

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم.. ص٢٥.

إن هؤلاء المرتحلين قد خرجوا من مكان أسمته التوراة (أور الكلدانيين)، دون أن توضح سببا عقديا، أو حتي خلافا فقهيا، أو سياسيا لخروجهم من هذا المكان الحضاري العريق، فقط تذكر التوراة أن هدف المرتحلين كان أرض كنعان ـ المفترض أنها فلسطين الحالية ـ والتي تواتر وصفها في التوراة بأنها (أرض اللبن والعسل) ممايشير إلي أن هدف الرحلة كان الوصول إلي أرض أكثر خيرا وفيئا. ولعل أول خلاف نلحظه بين هذه الرواية التوراتية، وبين الرواية القرآنية، هو أن القرآن الكريم يذكر أبا إبراهيم بالاسم (آزر) فالآيات تقول: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ ٧٤ ـ الأنعام، والخلاف هنا ليس فقط حول الاسم (تارح/آزر)، إنما هو خلاف عقدي أيضا، حيث تفهمنا الآيات أن الابن كان يخالف الأب في معتقده، وأن هذا الأب كان يعبد نوعا من التماثيل الإلهية، وهو ما لم تشر إليه التوراة بالمرة، بل ولم تشعرنا أنه كان ثمة خلاف بين الأب والابن من أي نوع، وكل ماتوحي به أسفار تلك الحقبة، أن الإبن إنما كان علي سنة الأب والعشيرة يسير، وأن الأب كان القائد والموجه. وإذا لجأنا إلي كتب التراث الإسلامية نستنطقها القول، حول هذا الخلاف، نجدها تؤكد أن أبا إبراهيم كان مقربا من الطاغية، الملك الكافر نمرود، وأن هذا الأب كان صانعا للتماثيل الإلهية، بارعا في فنها، مما أدي إلي خلاف شديد بين الإبن الذي يرفض عبادة التماثيل وماتمثله، وبين الأب الذي يعتقد فيها، ويتقوت من صناعتها وترتقي مراتبه الاجتماعية بقربها. أما الخلاف الثاني المتعلق باسم أبي إبراهيم، فإن معظم التراثيين يسيرون خلف رواية التوراة سيرا دقيقا، ويتابعونها متابعة عجيبة في غالب أمرها، حتي لاتكاد تجد خلافا إلا في الروايات التي انفرد بها القرآن الكريم دون التوراة، فعلي سبيل المثال يؤكد (ابن حبيب) في محبره: أن تارح هو آزر دون أية مناقشة أو اعتراض[1] وابن حبيب إنما يسير في هذا الشأن علي درب سلكه أصحابه من أهل التراث، فابن كثير بدوره يكاد يطابق الكثير من دقائق التوراة، وإن اختلفت بعض (الحروف) بين يديه، كنتيجة لما تتمتع به اللغات السامية من تبادل الحروف ذات المخارج الواحدة في النطق، إضافة لعدم وجود التشكيل والتنقيط في الكتابات القديمة، مع ظاهرة القلب اللساني (كما في زوج وجوز مثلا)، وفي قصة ابن كثير عن النبي إبراهيم، شجرة نسب تطابق تماما شجرة النسب الإبراهيمية في التوراة، مع الاختلافات الحرفية المشار إلي بعض اسبابها، فيقول: إن إبراهيم هو ابن تسارخ (تارح في التوراة)، ابن ناحور، ابن ساروغ (سروج في

---

١ ـ أبو جعفر محمد بن حبيب: كتاب المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت، ص٤.

التوراة) ابن راعو (رعو في التوراة) ابن شالح، ابن أرفخشد (أرفكشاد في التوراة) ابن سام، ابن نوح.

لكن ابن كثير يرسل قوله الواعي الحذر «وهذا نص أهل الكتاب»، ليلقي بالمسئولية علي أصحاب التوراة، متخلصا من تبعاتها بمهارة هادئة وفي الآن ذاته يثبت تحليه بالأمانة.[1]

ولاتفوت (ابن كثير) مسألة (آزر) و(تارح) فيتناولها ـ بذات الحذر ـ ويحيلها إلي (ابن جرير) محملا إياه خطل الرأي من صحته، فيقول: «وقال (ابن جرير): الصواب أن اسمه آزر، ولعل له اسمان علمان، أو أحدهما لقب، والآخر علم».[2] وفي معني كلمة (آزر) ذهب (البيضاوي) إلي أنها اسم وصفي، بمعني: القوي أو العضد أو المعين، أما الاسم العلمي فهو (تارح)[3] ولنذكر أن في اللغات السامية: (عازر) و(عزير) تساوي (آزر) وتفيد النصرة والتقوية، وقد عرفت السامية استبدال العين بالهمزة وبالعكس، ووضح ذلك في الآية القرآنية ﴿.. **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه**﴾ ١٥٧ ـ الأعراف، وعليه فإن الروايات الإسلامية لم تحاول بحث أمر (آزر) و(تارح) أبعد من ذلك، وعمدت إلي الأسلوب التوفيقي بين ماجاء في القرآن وماجاء في التوراة، رغم عدم اضطرارها شرعا لذلك، مما يشير إلي رغبة عجيبة في الالتقاء مع التوراة والتوافق معها وعدم ردها، رغم أن الشرع قد أعطاهم هذا الحق في الرفض، وهو أمر يمكن أن نري فيه وجهين، فهو من جهة دلالة طيبة علي علمية هؤلاء الإخباريين من حيث عدم رفض الرأي الآخر لمجرد المخالفة العقدية، لكنه من جهة أخري يشير إلي رغبة محمومة في الالتقاء مع التوراة، **تضع علامات استفهام حول مبرراتها؟؟.**

أما المسألة الأخري التي تتفق فيها الروايات الإسلامية مع روايات التوراة، فهي القول بخروج النبي إبراهيم (عليه السلام) من بلاد الرافدين يقصد أرض كنعان، وعلمنا أن التوراة قد حددت مركز انطلاق هذه الرحلة في مدينة (أور الكلدانيين) بالذات.

وإذا بحثنا عن مدينة باسم (أور UR) في الخريطة التاريخية للمنطقة، وتنتسب في ذات الوقت إلي دولة الكلدانيين، سنجدها علي الشاطيء الغربي لنهر الفرات، في أقصي جنوب الوادي الخصيب، ولكن تخصيص (أور) بأنها (أور الكلدانيين) لايعني

---

١ ـ ابن كثير: البداية والنهاية...، ج١، ص١٣٢.

٢ ـ نفسه: ص١٣٦.

٣ ـ محمد حسني عبد الحميد: ابو الأنبياء، إبراهيم الخليل، تقديم الشيخ حسين محمد مخلوف مفتي الديار المصرية سابقا، دار سعد، القاهرة، ط١، د.ت، ص١٤.

للعارف بالتاريخ أنها وجدت فقط في عصر الدولة الكلدانية، التي قامت مابين عامي ٦٢٥ و٥٣٨ قبل الميلاد، فهي مدينة عريقة عراقة العراق، وتعد من أشهر حواضر هذا الإقليم الحضاري الكبير، بينما الكلدانيون لايحسبون إلا علي الهامش الأخير لهذه الحضارة الكبري، فهم أصحاب دولة بابل الحديثة، التي سبقتها دول كبري وعظمي، بدأت منذ منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، علي يد السومريين[١] وكانت (أور) آنذاك دولة مدينة مستقلة[٢] ذات شأن ومكانة، وظلت (أور) علي مكانتها مع الدول التي تتابعت في المنطقة بعد السومريين، وظلت مدينة إدارية ودينية رفيعة الشأن، إبان حكم الأكاديين[٣] وإبان العصر السومري الثاني[٤] وإبان حكم دولة بابل الأولي[٥] وظلت صامدة أيام الاحتلال الجوتي[٦] والكاسي[٧] واستمرت علي ازدهارها حتي قيام الدولة الكلدانية[٨] آخر ممالك العراق المستقل في ذاك الزمان، فعاشت (أور) كمدينة كبري، ذات دور فاعل، مايزيد علي ثلاثة آلاف عام متتالية، دون انحسار تام أو انكسار حاد، يذهب بها في طوايا القري والقرون الخوالي.

وأن اتفاق الرواة المسلمين مع التوراة، حول العراق القديم كموطن أول للنبي إبراهيم، يظهر في قول الثعلبي النيسابوري: «لقد اختلف العلماء في الموضع الذي

---

١ ـ السومريون شعب قطن جنوبي الرافدين وبدأ ظهوره في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد، ولم يزل أصله محوطا بالغموض، وإن كان من المتفق عليه أنهم كانوا الأصل والدافع لحضارة العراق.

٢ ـ لم يتمكن السومريون الأوائل من إقامة دولة واحدة مركزية، إنما انتشرت ممالكهم في جنوب الرافدين في هيئة دول مدينية ومعبدية، ومن هذه المدن الدول (أورUR).

٣ ـ الأكاديون فرع من هجرات سامية متتالية تكاثرت في بوادي العراق والشام، قبيل منتصف الألف الثالث ق.م، وأسسوا في العراق القديم الدولة الأكادية بين عامي ٢٣٤٠ ـ ٢١٨٠ ق.م، وأشهر ملوكها المؤسسين شروكين Sharru - Ken المعروف بسرجون الأول.

٤ ـ نهض السومريون بعبء الكفاح ضد الاحتلال الجوتي، الذي قضي علي الدولة الأكادية، وكانت رائدة الكفاح مدينة (أور)، وبدأ فيها حكم السومريين الثاني، الذي أسسه (أورنمو) وولده (شولجي) خلال القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد.

٥ ـ أسرة بابل الأولي أسسها الأموريون ـ وهم شعب سامي ـ علي أنقاض دولة سومر الثانية بعد أن تنازعوا الوادي مع العيلاميين، وأشهر ملوكها حمورابي، استمرت مابين ١٨٨٠ ـ ١٥٩٥ ق.م.

٦ ـ الجوتيون قبائل من أهل الجبال الشمالية الشرقية، ولايعرف التاريخ عنهم إلا القليل.

٧ ـ الكاسيون قبائل هندوآرية هبطوا العراق من الشمال وأسسوا دولة بابل الثالثة حوالي ١٥٨٠ ق.م.

٨ ـ قامت علي أنقاض الآشوريين، وأشهر ملوكها نبوخذنصر، وانتهي دورهم علي يد الفرس سنة ٥٣٩ ق.م.

ولد فيه، فقال بعضهم: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقال بعضهم: كان مولده ببابل من أرض السواد بناحية يقال لها كوثا، وقال بعضهم: كان مولده بالوركاء في حدود كسكر، وقال بعضهم: كان مولده بحران لكن أبوه نقله إلي أرض بابل، وقال عامة أهل السلف من أهل العلم: ولد إبراهيم عليه السلام زمن نمروذ بن كنعان» .[١]

وهكذا نجد (الثعلبي) لم يخرج عن حدود بلاد العراق القديم، أو القسم الجنوبي من وادي الرافدين بالتحديد، وهو القسم الذي كانت (أور) مدينته الرائدة، والمواضع التي ذكرها (السوس، الأهواز، السواد، كوثا، الوركاء، كسكر) إنما تقع حول (أور) القديمة، لكنه يشير إلي موطن أخر، هو لوجه الحق ملحوظة مهمة، سنجد أنها ذات قيمة لاتنكر في حينه، فيقول: «وقال بعضهم: كان مولده بحران»، ثم يستدرك «لكن أبوه نقله إلي أرض بابل».

هذا عما جاء عند (الثعلبي) أما زعيم طبقة كتاب السير والأخبار (ابن كثير)، فإنه يحسم المسألة بقوله: «إن أرضه التي ولد فيها هي أرض الكلدانيين، يعنون أرض بابل، وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار، فقد انطلق تارح (تارح في التوراة، ولنلحظ أن ابن كثير قد غير هنا من تسارخ إلي تارخ) بابنه إبراهيم وامرأته سارة، وابن أخيه لوط ابن هاران، فخرج من أور الكلدانيين إلي أرض الكنعانيين، فنزلوا حاران، فمات تارح وله مئتان وخمسون سنة، وهذا يدل علي أنه لم يولد بحران، إنما مولده بأرض الكلدانيين» .[٢] (ولنلحظ في رواية ابن كثير هنا، أن الأب كان هو قائد الرحلة، وهو ماقررته التوراة، وأن الابن خرج في الرحلة مع الأب، ولم يكن علي خلاف معه طوال هذه السفرة الطويلة).

ومرة أخري، نجد التراثيين المسلمين في شك من الأمر، فيشيرون إلي احتمال (حاران) كموطن أول ومهد ميلاد للنبي إبراهيم (عليه السلام)، وهي كما قلنا إشارة لها أهميتها التي ستتضح بعد قليل، وحتي تتضح الصورة أمام قارئنا، فإن (أور) تقع ـ كما أشرنا ـ في أقصي الطرف الجنوبي للرافدين، علي حدود جزيرة العرب، بينما تقع (كنعان) إلي الغرب منها مباشرة، يفصلهما الجزء الجنوبي من بادية الشام، فهي منها قاب قوسين أو أدني، أما (حاران) فتقع في أقصي شمال

١ـ ابو إسحق الثعلبي: قصص الأنبياء المسمي عرائس المجالس، المكتبة الثقافية بيروت، د.ت ص٧٢.

٢ ـ الحافظ ابن كثير: البداية والنهاية...، ج١، ص١٣٢.

المنطقة وخارج حدودها، وبالتحديد داخل المنطقة التركية الأرمينية القديمة.

وإن وجود (حاران) هنا يشكل معضلة للباحث في التوراة، فهي تظهر كما لو كانت موطنا للقبيلة الإبراهيمية، أو هي موطنه الأصيل، إضافة إلي (أور) فالتوراة تقول: إنه بعد تحرك الأب (تارح) بعشيرته من (أور) لم يذهب مباشرة إلي كنعان ـ هدف الرحلة ـ رغم قربها منه حيث تقع إلي الغرب مباشرة، إنما أخذ يضرب شمالا مسافات بعيدة، في رحلة كبري:

فأتوا حاران وأقاموا هناك، ومات تارح في حاران، وقال الرب لإبرام، اذهب من **أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك**، إلي الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك، وتكون بركة، فأخذ إبرام ساراي امرأته، ولوطا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا، والنفوس التي امتلكا في **حاران**، وخرجوا ليذهبوا إلي أرض كنعان.

تكوين: ١١: ٣١، ١٢: ١ ـ ٥

لاحظ هنا أن التوراة تشير إلي (حاران) بأنها: «أرضك وعشيرتك وبيت أبيك»، ثم هناك إشارات أخري متعددة تشير إلي مواطن أخري للنبي إبراهيم، فبعد أن يترك (حاران) ويستوطن (كنعان) غريبا، وينجب ولده الثاني (اسحق) تقول التوراة:

وشاخ إبراهيم وتقدم في الأيام، وبارك الرب إبراهيم في كل شيء.
وقال إبراهيم لعبده كبير بيته: .. ضع يدك تحت فخذي فأستحلفك بالرب إله السماء وإله الأرض، الا تأخذ زوجة لابني من بنات الكنعانيين، الذين أنا ساكن بينهم، بل إلي **أرضي وعشيرتي** تذهب وتأخذ زوجة لابني اسحق.

تكوين: ٢٤: ١ ـ ٤

أما أين أرض العشيرة الإبراهيمية، التي اتجه إليها العبد ليأتي بزوجة لإسحق؟ فهو مايوضحه استطراد التوراة:

إن العبدذهب إلي أرام النهرين: إلي مدينة ناحور

تكوين: ٢٤: ١٠

وناحور هو جد إبراهيم، هو أبو تارح أبو إبراهيم، أي أن أرام النهرين هي موطن الأجداد والعشيرة!

ثم نجد إشارات لمواطن أخري، فهذا إسحق يسير علي سنة أبيه، مصرأعلي نقاء

الدم العبري، وعدم تدنيسه بدم آخر، لذلك فإن إسحق:

> دعا يعقوب (ابنه) وباركه وأوصاه، وقال له: لاتأخذ زوجة من بنات الكنعانيين، قم واذهب إلي **فدان أرام**.. وخذ لنفسك زوجة من هناك.. فخرج يعقوب.. وذهب إلي **حاران**؟!
> تكوين: ٢٧: ١، ٢، ٧، ١٠.

والملحوظة الجديرة بالبيان هنا، هي أن (أرام النهرين، وفدان أرام، وحاران)، كلها مناطق تقع شمالي بلاد الشام، وشمال غربي العراق، فما للتوراة إذن و(أور الكلدانيين) في أقصي الجنوب؟ ويبدو أن هذه الإشكالية قد واجهت مؤرخينا الأوائل، وتركتهم بين الشك واليقين، أو بين (أور) و(حاران) كموطن للقبيلة الإبراهيمية ومهد أول، فقال الثعلبي محاولا الحل: «وقال بعضهم: كان مولده بحران، لكن أبوه نقله إلي بابل». أما ابن كثير فأكد أنه من مواليد (أور) الكلدانية الرافدية، بدليل أن أباه مات في (حاران) بعد الرحيل إليها، ويعقب بالقول: «وهذا يدل علي أنه لم يولد بحران، إنما كان مولده بأرض الكلدانيين»!! أما المستر (ماير)[١]، فقد بلبلته إشارة التوراة، إلي أن عبد إبراهيم لما ذهب يأتي بزوجة لإسحق، توجه إلي «أرام النهرين مدينة ناحور»، فهذا الجد البعيد (ناحور) لايقيم في (أور الكلدانيين)، إنما في «أرام النهرين»، قرب (حاران) في أقصي الشمال، وخلاصا من البلبلة حل (ماير) الإشكال بجرة قلم، وقال:

> «يظهر أن ناحور كان قد سبق.. إلي حاران، إذ أننا نجد ذريته لاتزال موجودة فيها فيما بعد»[١] ويحيلنا إلي دلائل هذا التواجد بالتوراة في سفر التكوين (١١: ٢٩، ٢٢: ٢٠ ـ ٢٣، ٢٤: ١٠ ـ ٢٧، ٤٣)

أما الباحثون المحدثون في علوم التوراة، فيبدو أنهم قد أهملوا مسألة (حاران)، وتوقفوا عند (أور) يبحثون ويفحصون، ومن ثم أعلن الأستاذ (دي فو DE-VAUX) أن إبراهيم قد هاجر من (أور) مابين عامي (١٩٠٠ ـ ١٨٥٠ق.م) مؤسسا إعلانه علي زعم أن سبب الهجرة، هو النزاع الذي قام في جنوبي الرافدين حينذاك، بين دولتي (إيسن)

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم..، ص٢٧.

و(لارسـا) [١] مما أدي إلي هـجـرات مـتـتـابـعـة من المنطقـة هـربا من أوار الحرب، وقد دعـم (دي فو) مذهبه بنقـوش تم العثور عليها في المنطقة، منقـوشـة علـي ألواح بابلـية، جـاء بهـا الكلـمـتـان: (أبام رام) و(أبارامـا) واحتسبهما صيغتين لاسم النبي (إبراهيم) أو (إبرام) [٢]

والغـريب في أمـر الأسـتـاذ (دي فـو) أنه يعلم يقـينا الموعـد المقبـول لزمن النبي إبراهيم، وحـدده هـو نفـسـه بين عـامـي ١٩٠٠ ـ ١٨٥٠ ق.م أو بـالـتـقـريـب حـوالي ١٧٠٠ ق.م عند غالب الباحثين، ولاشك أنه يعلم يقينا أن دولتي إيسـن ولارسا غير دولة الكلدانيين، وأنهما قـد سبقـتا دولة الكلدان بحوالـي ألف عام، وهـو زمـن ـ في عرف التـاريخ ـ غيـر هين أو قليل فكيف اتفق له ذلك؟ ثم كـيف جاز أن يعـثر علي (أبام راما) علي نقش بابلي، فيعلن فورا: هـنا ولد إبراهيم!! كما لو كان (إبرام) هـو الوحـيـد بين الـسـامـيـين الذي انفـرد باسم (إبرام)، فـي منطقـة تموج بضـجـيج الشعوب السامية وتفور؟

أما الباحث في التوراة الاستاذ (فـيلبي) فقد وقف بدوره عند (أور) لايتجاوزها أنملة، لايرفع عـينيه عنهـا، وانتـهي من بحثـه إلي قراءة نقـوش بابليـة، تحكي عن ملك حكم في جنوب الرافدين، قـامت ضده حـركة انقلابيـة أقصتـه عن البلاد، وكان اسـمـه (يثع إيل YATHI-IL) وقـد اسـتـنـتج (فـيلبي) أن هـذا الملك هـو النـبي إبراهيـم، اسـتـنادا لترجـمة العـلامة (DOUGHTY) لاسـم (يثع إيل) بمعـني (خليل الله) والصـفة (خليل الله) هـي صفة إبراهيم في التـوراة. [٣]

ومرة أخـري نجد في حديث الأسـتاذ (فيلبي) غـرابة حديث الأسـتـاذ (دي فو) فلاشك أنه يعلـم أن الاسم (يثع إيل) كان اسـمـا متواترا بين السـاميـين عمـوما، وبين عرب الجنـوب خصـوصـا، وقد بحثنا فـعـثـرنا علي أسماء لـعدد من الملوك في قوائم الـعربية الجنوبية بهذا الاسـم، فـهـناك ثلاثة ملـوك حكمـوا بهذا الاسم

---

١ ـ تعـرضت دولة (أور) في أواسط القـرن العـشـرين ق.م لغـزو شـرقي من العـيلامـيـين الآريين، وغـزو غـربي من الأمـوريين السـامـيـين، واقتـسمـوا مـجدهـا، ولكن ظلـت الحروب بينهـمـا سجـالا فتـرة طويلة، واحـتضن الأمـوريون الحـضارة السـومـرية الأكدية في الـعاصـمـة (إيسن)، واتخذ العـيلاميـون خطوة مماثلة فـتـركوا للعـاصـمة (لارسـا) استقلالها الذاتي واكتفوا بتولية الأمـراء عليها، إلي أن ساد الأموريون بسـيادة بابل، واسسـوا دولة بابل الأولي حوالي عام ١٨٨٠ ق.م.

2-R.De Vaux, Les Patriarches Hebreus et L'Histoire, Revue Biblque72 (1925), pp. 5-28

3-H.J.B.philpy, The Background of Islam Being a Sketch of Arabian Historin preIslamic Times, Alexandria, 1947, pp. 10-11.

في الجيل الأول من مكاربة سبأ[1]، واثنان آخران في باقي الأجيال الخمسة من ملوك سبأ، وغيرهم كثير، فهل كانوا جميعا خلانا للإله وأنبياء له؟ وإذا كانوا جميعا كذلك فمن منهم كان هو النبي إبراهيم علي وجه القصد والتحديد؟ حقيقة إن سند الأستاذ (فيلبي) هنا سند غير تام الإقناع بدوره.

وكان الاسم (يثع) منتشرا في بلاد العرب الجنوبية، وكان أحد أسماء الإله القمر، كما كان ينطق أيضا: (يشع)، (يشوع)، وفي هذا الحال كان يعني المخلِّص، وقد تخلف في اسم (يشوع بن نون) وبتبادل حرف (ش) مع حرف (س) ينطق أيضا (يسوع)، الذي تخلف في اسم المسيح، وبالقلب تنطق (يسوع) نطقا صحيحا تماما (عيسي).[2]

وهكذا لانري المسألة قد حلها (الثعلبي) أو (ابن كثير) رغم اجتهادهما، ورؤيتهما الاحتمالية لموطن إبراهيم (عليه السلام) بين (حاران) وبين (أور)، ولا حلها القس (ماير) بتخلصه السريع الفكه، ولاحلها الدارسون المحدثون في علوم التوراة، وضربنا منهم مثلا بالأستاذين (دي فو) و(فيلبي) وعليه، تبقي الإشكالية تطلب حلا، ممثلة في التساؤل: هل كان موطن النبي إبراهيم (عليه السلام) هو: (أور الكلدانيين)، أم (حاران)، أم (أرام النهرين) أم (فدان أرام)؟ وهل كان في أقصي جنوب العراق علي الحدود العربية؟ أم في أقصي الشمال داخل الحدود الأرمينية؟

---

١ ـ فرتزهومل: بحث مع مجموعة بحوث لعلماء آخرين يضمها كتاب: التاريخ العربي القديم، بعنوان: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨، ص٧٧.

٢ـ للمزيد: انظر: سيد محمود القمني: القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث، الكرمل، مؤسسة بيسان، نيقوسيا، قبرص، عدد ٢٦.

المبالغات والتلفيقات

تأتينا في القرآن الكريم مزيد من الأخبار عن النبي إبراهيم (عليه السلام)، لم تعرفها التوراة بالمرة، لعل أهمها أن إبراهيم (عليه السلام) كان موحدا، بينما كان أبوه عابدا للأوثان، صانعا لها، هذا إضافة إلي قصة تكسير إبراهيم (عليه السلام) لأصنام قومه، وماترتب علي ذلك من حدث إلقائه في النار، ونجاته منها بأمر الله، وبلطف منه، ومادار بينه وبين (نمروذ) من جدل حول صحيح العقيدة، مع شروح أخري كثيرة، وإضافات أكثر، جاءت بكتب التراث الإسلامية، بعضها ترديد للقصص القرآني، وبعضها ما أنزل الله به من سلطان، ويعد من قبيل الشغف بالمبالغات، وأكثرها لم يرد له في التوراة ذكر، وبعضها الآخر نوع من الإسرائيليات الواضحة، التي أخذها الإخباريون المسلمون دون تحقيق أو تدقيق، لذلك رأينا التوقف هنا للتعرف علي الصورة التي خططها هؤلاء للنبي إبراهيم (عليه السلام)، وهي تتعلق في رأي أصحابها، بالفترة التي قضاها الخليل في موطنه الأول قبل هجرته إلي أرض كنعان.

تقول هذه الروايات: إنه ما إن استقرت البذرة الإبراهيمية المباركة في بطن أم إبراهيم (عليه السلام)، حتي لاحظ القوم أن الأصنام قد نكست رؤوسها (؟!)، وظهر وقتها نجم في السماء له طرفان[١] وأن الدارس للأساطير وتاريخ الأديان، يمكنه أن يلحظ دون جهد، أن مثل هذه الإضافات المبالغة، تلحق بقصص الأبطال الأسطوريين لدي الشعوب القديمة، وبشكل متواتر، حيث كان لابد أن تسبق ميلاد البطل إشارات ونبوءات، من نوع الخوارق الطبيعية للإعلام بمقدمه، فمثلا إله فارس القديم (ميثهرا) صحب مولده نجمة بذيل عظيم، كذلك (نيرون الروماني)، كذلك (زرادشت) المزعوم أنه نبي فارس، كذلك قاد شعاع هذه النجمة المجوس إلي حيث ولد (يسوع المسيح) حسب رواية الأناجيل.. الخ.

وعندما ولد النبي إبراهيم (عليه السلام) كان يحكم بلاد الرافدين الطاغية (نمروذ الجبار ابن كنعان) الذي ادعي الألوهية، هذا ماترويه كتبنا التراثية، وقد بحثنا عن اسم (نمروذ) في قوائم ملوك العراق القديم، فلم نظفر بنتيجة، وطاشت جهودنا، غير أننا لحظنا وجود منطقة آثارية يطلق عليها هذا الاسم (نمروذ)، ومن الواضح أن هذا الاسم قد أطلق في بداية العصور الإسلامية، تأثرا بهذه الروايات، ومن المعلوم أن هناك أسماء كثيرة وغفيرة قد أطلقت علي مواضع مختلفة في كثير من البلدان، نتيجة لمثل هذه الروايات، وفقدت أسماءها القديمة، أو أصبحت الأسماء

---

١ ـ محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء...، ص١٧.

القديمة علامات تاريخية في كتب المؤرخين والآثاريين المتخصصين فقط، وكثير من مواطن فلسطين والشام والعراق، قد أعيدت صياغة أسماء المواضع فيها أكثر من مرة، وكان للتسميات التوراتية بالتحديد نصيب الأسد في هذه المعمعة التلفيقية.

وتستمر الروايات فتقول: إن (نمروذ) قد غالي في طغيانه، وأخذ يجبر الناس علي عبادته، وذات يوم ذهب إليه كبير كهانه وعرافيه، ليعلمه بأنه قد آن أوان ميلاد شخص جليل، وأنه علي يدي هذا الشخص سينتهي شأن النمروذ، فما كان من هذا الملك الطاغي إلا أن أمر بتقتيل جميع الذكور الذين ولدوا في هذا العام، ولنلحظ مرة أخري أن البطل في القصص القديم عادة ماكان يتعرض لمحنة القتل والموت، وحتي يكون بطلا فإنه لابد أن يجوز المحنة، ويقضي علي الطاغية، الذي يمثل دور الشر في الأسطورة، إضافة إلي العنصر الدرامي الثالث وهو النبوءة، التي عادة مايمثلها كاهن شرير لديه قدرات خرافية علي رأسها معرفة الغيب، ومن ثم يحاول الملك الشرير أن يبطل مفعول النبوءة السحري بالتحايل علي القدر، أو محاولة التغلب عليه، لكن القدر بالمرصاد، ولابد أن ينتصر الخير علي الشر، فينجو الطفل من المذبحة لتكتمل فصول الملحمة القدرية، والدارس للأساطير القديمة يلحظ بوضوح سيادة فكرة القدر في القصص الميثوبي، فهذا (سرجون الأول) ملك أكاد يتعرض للمحنة فتلقي به أمه في صندوق من القش في مياه النهر.[١] وهذا (تموز) إله الخصب البابلي الأصل يتعرض لمحنة الموت لكنه ينتصر عليها[٢]، وهذا (أوديب) اليوناني يتعرض لذات الأمر ولذات النبوءة في فصول درامية تكشف عن فشل أية محاولة للتملص من نبوءة قتل الملك (لايوس) علي يديه[٣]، وهذا النبي (موسي) يلقي في الماء لكنه يقضي في النهاية علي الطاغية وتتحقق النبوءة القدرية. وهذا (يسوع) تهرب به أمه إلي مصر حتي لايقتل في محنة ذبح الأطفال التي أمر بها الطاغية (هيرود)[٤]، وهذا (أدونيس) الفينيقي يجوز ذات التجربة[٥]، وهذا (أتيس) الفريجي يتغلب أيضا علي

---

١ ـ ورد ذلك في نص سجله عن نفسه، انظر: د. عبد العزيز صالح: الشرق الأدني القديم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧، ج١، ص٤١٦.

٢ ـ لمزيد من التفصيل ارجع إلي: سيد محمود القمني: إلهة الجنس أو الزهرة: آفاق عربية، بغداد، عدد ٩ لسنة ١٩٨٢، ص٣٨: ٤٧.

٣ ـ سوفوكليس: الملك أوديب، هناك عدد من الترجمات، انظر كمثال ترجمة أمين سلامة ـ نشر دار الفكر العربي، القاهرة.

٤ ـ الأناجيل: كمثال انجيل متي، إصحاح ٢: ١٣، ١٤.

٥ ـ للمزيد ارجع إلي: سيد محمود القمني: الأضاحي والقرابين، الجذور الاجتماعية، فكر للدراسات والأبحاث، القاهرة، عدد ١١، يناير ١٩٨٨، ص٨٣: ١٠٦.

تجربة الموت[1] .. الخ. ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم لم يورد مثل هذا الحدث في قصة النبي إبراهيم، إضافة إلي أن البحوث التاريخية في العراق القديم، لم تثبت أن ملوك العراق لجأوا إلي تأليه أنفسهم إلا في حالات نادرة، كما في حالة الملك (جوديا) في العصر السومري الثاني، وهو عصر غير عصر الكلدانيين المزعوم ـ توراتيا ـ عصرا للنبي إبراهيم، وهو أمر يضاف لتساؤلنا حول مصداقية (أور الكلدانيين) كمنطلق للرحلة الإبراهيمية، وموطن أول له؟!

وتتابع روايات التراث الإسلامية، فتقول: إن النبوءة كانت محققة في حمل أم النبي إبراهيم (عليه السلام) به، ولما أتاها المخاض توجهت إلي مغارة في الجبل حيث وضعت وليدها هناك، وتركته تحت رحمة الأقدار وعادت إلي قريتها، ولكن الحنين اشتد بها إلي وليدها ولم تنقض من الأيام ثلاثة، وعادت تهرع إلي باب المغارة حيث تركته، وهناك «وجدت الوحوش والطيور حاشدة عند باب المغارة، فأشفقت علي إبراهيم، وخشيت أن يكون قد أصابه سوء، أو يكون قد هلك، فلما دخلت عليه ألفته سليما آمنا يجلس علي فراش من سندس، مدهونا مكحولا... وقد لاحظت أنه يمص أصابعه، وأن لبنا يخرج من أصبع، وعسلا يخرج من الآخر، وماء يخرج من الثالث»[2]

وهكذا حاولت أمه أن تنقذه من الموت علي يد (نمروذ)، لتتركه ثلاثة أيام كاملة في مغارة بالجبل معرضا لموت محقق، لكن حتي تبرز المبالغات دور القدر ورعايته للبطل، تجده أمه محاطا بالوحوش ترعاه، ويخرج له الغذاء من أصابعه، إضافة إلي الرعاية التجميلية كالدهن والكحل، وهو أيضا مالم يرد به نص قرآني أو توراتي، ولايمكن تفسيره إلا في ضوء خصائص الأسطورة والقصص الشعبي، (وللتذكرة فقد ورد ذلك النص في كتاب قدم له الشيخ مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق؟!)، ويستكمل النيسابوري القصة فيقول: «وكان اليوم يمر علي إبراهيم عليه السلام كالشهر، والشهر كالسنة، فلم يمكث إبراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر يوما، حتي جاء إلي أبيه آزر فأخبره أنه ابنه».[3]

ولم يمض إبراهيم (عليه السلام) إلا قليلا مترددا بين عبادات قومه، الثالوث

---

١ ـ للمزيد ارجع إلي: سيد محمود القمني: البعد الأسطوري للشيطان في التراث الشرقي، فكر، القاهرة، عدد ١٠.

٢ ـ محمد حسني عبد الحميد: أبو الأنبياء..، ص١٨

٣ ـ الثعلبي النيسابوري: عرائس المجالس..، ص٧٦.

الكوكبي المقدس لدي الشعوب القديمة (القمر الأب، والشمس الأم، وكوكب الزهرة الابن) حتي انتهي إلي الوحدانية، ومن ثم بدأ يسخر من قومه وأربابهم، التي عدّها تماثيل لاتنفع ولاتضر، ثم انتهز يوم خروج قومه من المدينة في عيد لهم، وادعي السقم كي يبقي في المدينة لغرض أضمره، وما إن خرج الناس حتي توجه من فوره ـ والمدينة خالية ـ إلي ساحة الأصنام، يحمل فأسا، فحطمها وجعلها جذاذا، إلا كبيرا لهم علق الفأس برقبته لتناط به المسئولية، وتقول الآيات: ﴿فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون﴾ ـ ٥٨ ـ الأنبياء، وعندما عاد القوم، وأصابهم مصاب أربابهم بالهلع والغضب، توجهت أصابع الاتهام فورا إلي إبراهيم، لأنه هو الذي كان يعيبها ويستصغر شأنها، فأجابهم بسخرية: إن الذي كسرها هو كبير الآلهة، وفي الحديث عن محمد (صلي الله عليه وسلم) قوله الذي يورده الثعلبي مدعما: «إن إبراهيم عليه السلام، لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلها في الله تعالي؛ قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، **وقوله: للملك الذي عرض لسارة: إنها أختي»**.[1]

وهنا ثارت عوارم القوم، واتخذوا قرارا بحرق الساخر المتحدي ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردا وسلاما علي إبراهيم. وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين﴾ ـ ٦٨ـ ٧٠ الأنبياء، ويشرح الثعلبي بعض دقائق الموقف حينذاك بقوله: «فلما أرادوا إلقاءه في النار، أتاه ملك المياه فقال: إن أردت إخماد النار فإن خزائن المياه والأمطار بيدي، وأتاه خازن الريح فقال: إن شئت طيرت النار في الهواء، فقال إبراهيم عليه السلام: لاحاجة لي بكم».[2]

وقال (الضحاك): «يروي أن جبريل كان معه يمسح العرق عن وجهه، لم يصبه منها (أي من النار) شيء غيره، وقال السدي: كان معه أيضا ملك الظل»[3]، وفي رواية مسلم (أخرجه النسائي وابن ماجه، ورواه أحمد)، أن إبراهيم لما ألقي به في النار، جعلت كل الدواب تطفيء النار عنه إلا الوزغ، فإنه كان ينفخها عليه، لذلك أمر النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) بقتل الأوزاغ[4]! وفي رواية إضافية أن إبراهيم (عليه السلام) لما خرج من النار سليما معافي، حدث أن نمروذ جلس علي عرشه، فإذا العرش يهتز من تحته اهتزازا عنيفا، وإذا صوت يرتفع قائلا: ياويح الكافر بإله

---

١ ـ المرجع نفسه: ص٧٦.

٢ ـ المرجع نفسه: ص٧٧

٣ ـ ابن كثير: البداية والنهاية...، ج١، ص٢٤.

٤ ـ المرجع نفسه: ص١٣٩.

إبراهيم، ياويح الكافر بإله إبراهـيم، وأن الطيور والوحوش كانت تهتف: ياويح الكافر بإله إبراهيم[1]، ورغم هذه البينة الخارقة، لم يؤمن الكافر بإله إبراهيم، ولم يقنعه منطق الطير والوحش!! إنما طغي وتجبر، ودخل مع إبراهيم (عليه السلام) في مناظرة جدلية حول العقيدة الجديدة.

ويحكي القرآن الكريم هذه المناظرة في قوله تعالي: ﴿ألم تر إلي الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾ ـ ٢٥٨ ـ البقرة. ويعقب (السدي) بالقول: «إن هذه المناظرة كانت بين النمروذ وإبراهيم يوم خرج من النار»[2]، وهنا يضيف ابن كثير: إن الله اختتم هذه المجادلة التي لا طائل من ورائها بعد أن ظل نمروذ علي جحوده، بأن «أرسل.. عليهم ذبابا من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بالية، ودخلت واحدة منها في منخر الملك، فمكثت في منخره أربعمائة سنة(؟!) عذبه الله بها، فكان رأسه يضرب بالمراذب هذه المدة كلها، حتي أهلكه الله عز وجل».[3]

وإذا لم يعجب العقل لأربعمائة سنة عمر الإنسان، وعذابا، أفلا يعجب من بعوضة تعيش أربعة قرون، تستمتع بمشهيات المنخار النمروذي؟

أما ماتلي ذلك عند الإخباريين فهو خروج إبراهيم (ص) بقومه من (أور الكلدانيين) إلي كنعان، بعد أن أخربها البعوض علي أهلها، لكن العقل يظل واقفا يتساءل ولايتزحزح: لماذا تترك العائلة الإبراهيمية (أور) ذلك الموطن عريق الحضارة؟ والعقل يقف كذلك بالطبع، لأنه لم يقنع بهلاك (أور) بالذباب والبعوض، لأن (أور) ظلت قائمة بعد عهد النبي إبراهيم بما يزيد علي اثني عشر قرنا آخر، وللعقل في ذلك حق مشروع وشرعي حيث لم يرد لهذه التفاصيل إشارات في القرآن الكريم، إضافة إلي الإشكال الحقيقي والأساسي المتمثل في تخصيص (أور الكلدانيين) موطنا للعشيرة الإبراهيمية، فالدولة الكلدانية قامت بين عامي ٦٢٥ ـ

---

١ ـ محمد حسني عبد الحميد: ابو الأنبياء...، ص١٧، ١٨.

٢ ـ المرجع نفسه: ص١٨.

٣ـ ابن كثير: البداية والنهاية...، ج١، ص١٤١.

٥٣٨ ق.م، بينما النبي إبراهيم (عليه السلام) يعود إلي زمن أقدم من هذا الزمان، فقد عاش فيما يذهب الباحثون حوالي ١٧٠٠ق.م[1] فيفصل بين زمنه وزمن الكلدانيين ألف عام تقريبا، وليس بين الملوك الكلدانيين نماردة، ولا في (أور) نماردة، ولا في تاريخ الملوك الرافدين نمروذ واحد، وهو ممايدعو إلي التشكك في المصدر الأول ومصداقيته، أقصد التوراة، وكل من تبع هذا المصدر في دربه وزعمه، أن موطن النبي إبراهيم (عليه السلام) هو (أور الكلدانيين) حتي لو كان من سلك هذا الدرب أعلام مثل المستر (فيلبي) والمسيو (دي فو).

لكن قبل طرح رؤيتنا في حل مشكلة الموطن الأصلي للعشيرة الإبراهيمية، نجدنا وقد اضطرنا للوقوف مع (أور)، أمور، تنتج لزوما وتتأسس علي ماورد في كتب الأخبار الإسلامية وهي وإن كانت خارج دائرة اهتمام هذا البحث، إلا أن لها أهميتها العامة، ولايصح التغافل عنها عندما تفرض نفسها.

وأول مايلفت النظر في روايات الإخباريين، هو اسم الطاغية الذي ادعي الألوهية، أقصد (نمروذ بن كنعان) وقد سبق وأشرنا إلي أنه لم يرد في قوائم ملوك العراق القديم، أما الأهم فهو كونه (ابن كنعان) والإخباريون المسلمون هنا أكثر مجاملة للعبريين من التوراة، التي قسمت شعوب الأرض عبر نسل النبي نوح بعد الطوفان، فقالت إنه أنجب (سام) الذي جاء من نسله الشعب العبري، و(حام) وأبناء حام هم: (كوش) الذي أنسل الأحباش وسمر البشرة عموما، و(مصرايم) الذي أنجب المصريين، و(كنعان) الذي أنجب الكنعانيين، ثم تقول: «وكوش ولد نمروذ الذي ابتدأ يكون جبارا في الأرض، وكان ابتداء مملكته بابل وأورك وأكد وكلنة في أرض شنعار» ـ تكوين: ١٠: ٦ ـ ١٠.

والمعلوم أن التوراة تصب لعنتها فوق رؤوس أبناء حام عموما، من مصريين وكنعانيين (فلسطينيين)، لكنها عادة تخص (كنعان) باللعنة باعتبار الكنعانيين هم سكان فلسطين الأصليون، والمطلوب إبادتهم لصالح النسل العبراني من أبناء سام، ومن هنا نعرف سر البركات التي تواتر استنزالها بالتوراة علي رؤوس النسل السامي، لكنها هنا تقول: إن نمروذ الجبار هو من أبناء كوش، ويبدو أن الإخباريين المسلمين لكثرة الاعتياد علي سب كنعان، رأوا من جانبهم أن يكون نمروذ الكافر الجبار ابنا لكنعان بالمرة، طالما قد تم اختياره كمصب لكل اللعنات، دون إدراك

---

١ ـ حدد الباحثون زمن النبي إبراهيم حوالي ق١٧، ق١٨ ق.م انظر في مثل هذه التحديات: إيفارلستر (حدده/ ١٧٠٠ ق.م) في كتابه الماضي الحي، حضارة تمتد سبعة آلاف عام، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١، ص١٣٨.

حقيقي لما يترتب علي ذلك من فهم في ذهن المسلم العربي!!

وهكذا يكون عدو النبي إبراهيم اللدود هو ابن كنعان، وكفي بذلك مبررا للاستيلاء علي أرض كنعان من قبل العبريين، ولا ملامة، بل إنهم بذلك ضامنون لتعاطف كل المؤمنين مع النبي إبراهيم، ضد مدعي الألوهية ابن كنعان، الكافر، ابن الكافر! أو التعاطف مع النسل العبراني ضد أهل البلاد، والعجيب أن يكون ابن كنعان ملكا في العراق، ويهجر النبي بلاده ليلجأ إلي بلاد أبيه كنعان في فلسطين!

أما أصل اللعنة وسرها التوراتي، فيرد في قصتها التي تقول: إنه بعد هبوط النبي نوح وأبنائه من الفلك.

> ابتدأ نوح يكون فلاحا، وغرس كرما وشرب من الخمر وتعري داخل خبائه فأبصر حام عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا، فأخذ سام ويافت الرداء ووضعاه علي أكتافهما ومشيا إلي الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلي الوراء، فلم يبصرا عورة أبيهما، فلما استيقظ نوح من خمره، علم مافعل به ابنه الصغير، فقال: ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته، وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم
>
> تكوين: ٩: ٢٠ ـ ٢٦

وسار الإخباريون المسلمون وراء التوراة هنا أيضا (عالجنا ذلك بالتفصيل في بحث سبق نشره)[١]، واستنزلوا اللعنات صبا علي رأس كنعان بن حام، رغم أن الأثم في القصة (إذا كان فيها إثم) هو حام الأب وليس كنعان الابن؟!

أما الأمر الثاني، الذي يتأسس علي ما أوردته التوراة، وأخذ به الإخباريون المسلمون، فهو مانضرب له مثلين: الأول من أصحاب الديانة المسيحية التي تأخذ بالتوراة الحالية كمقدس مسلم بصدقه، وهو القس المبشر العالمي (ماير).

والثاني من الباحثين المسلمين المحدثين (د. صابر طعيمة) حيث كان إبراز المثالية النبوية ممثلة في النبي إبراهيم، تعني في المقابل الحط من شأن أهل العراق القديم بحسبانهم من أهل (أور الكلدانيين).

يقول (ماير): «كان أولاد حام قد أغرقوا في العبادة الوثنية.. وسرعان ما اقترنت عبادتهم بمظاهر الدعارة والفجور، وفي وسط بني حام قامت عشيرته (يقصد

---

١ ـ سيد محمود القمني: القمر الأب او الضلع الأكبر في الثالوث، الكرمل، نيقوسيا، عدد ٢٦.

عشـيرة النبي إبراهيم) من بني سـام، واستقـرت في المراعي الغنية خـارج مدينة أور، تحت قيادة رئيسها تارح، ولأن أفراد هذه العشيرة كانوا من الرعاة، فلم تأخذ ألبابهم تلك المدينة ذات الأسوار العالية، بكل مافيها من مظاهر وأمجاد المدنية.. **إن حياتهم الدينية كانت أنقي من حياة أولئك القوم** الذين سكنوا في وسطهم، علي أنه للأسف الشديد، سرعان مادبت **جرثومة الفساد** وسط هذه العشيرة بسبب مجاورتها لبني حام، يالها من مسئولية خطيرة علي أولاد الله الأتقياء، إذا ارتضوا أن يعيشوا في **الأوساط النجسة الشريرة**[1]...الخ».

هذا كل ما رآه (ماير) في حضارة الرافدين القديم: عبادات وثنية، جرثومة فساد، أوساط نجسة شريرة... الخ وهي بالطبع رؤية من خلال العدسات التوراتية.

فماذا يقول (د. طعيمة)؟

«حوالي عام ١٨٠٠ق.م كانت مجموعة من الرعاة والمنتسبة تاريخيا لبعض هذه الأفواج، التي هاجرت من الصحراء إلي منطقة الهلال الخصيب، قد استطاعت أن تنتشر في العراق وتستقر لتؤلف دولة يذكرها التاريخ باسم الكلدانيين، وهناك من وسط الطبقات الدنيا، في قلب **هذا الشعب الوثني المتخلف**، نشأ النبي إبراهيم عليه السلام».[2]

وهنا أيضا، نجد (د. طعيمة) لايذهب أبعد من (أور) ودولة الكلدانيين رغم المفارقة الزمنية، ثم لايري في حضارة العراق وشعبها (واصطلاح العراقة لغة مأخوذ من عراق) سوي أنه شعب وثني ومتخلف؟! لاحظ مرة أخري (ومتخلف)! وللتوراة هنا ـ كما هو واضح ـ دورها الخطير وأثرها العجيب، والتي لم يترك كاتبوها فرصة للطعن فيمن اصطلحوا علي تسميتهم (بني حام) إلا وانتهزوها، بل قد تجد اللعنات أحيانا بدون مناسبة وفي غير سياقها، وهو أمر لايحتاج جهدا في كشفه، فإضافة إلي أن أرض كنعان كانت الغرض والمشتهي، فإن العراق ومصر قد جعلوا من الدويلة الإسرائيلية زمنا طويلا كرة يتقاذفانها، ولم ينس هؤلاء أبدا أن الفرعون (مرنبتاح) ومن بعده الفرعون (شيشنق)، قد سحقا هذه الدولة، ثم جاء العراقيون القدامي، الآشوريون أولا، ثم (نبوخذ نصر) الكلداني، ليجهزوا علي ماتبقي منها، ولم يكن بيدهم سوي صب اللعنات علي رؤوس العراقيين والمصريين.

أما اتفاق (ماير) و(طعيمة) علي وثنية الشعب العراقي آنذاك وهو اتفاق مؤمنين،

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم...، ص١٢، ١٤.

٢ ـ د. صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام، دار الجبل، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج١، ص٣١.

فربما كان مقبولا للتعددية في العبادة، لكن ما لا يجب إغفاله أن الشعب العبري نفسه كان معددا وعبد كثيرا من الآلهة في آن واحد، ولعل أغرب الحقائق في بابه، أن الإله الذي عرف في التوراة خلال الحقبة الإبراهيمية، وطوال سفر التكوين، والمعروف بالاسم (إيل) أو (إل) كان إلها معبودا لدي جميع الساميين، وفي كنعان، وبخاصة في العراق القديم!، كما كان الاسم (إيل) يستخدم كعلم عام دال علي أي إله من آلهة الرافدين القدامي، وفي التوراة نجد الاصطلاح الإلهي في سفر التكوين هو (إللوهيم) وهو الجمع العبري للمفرد (إل)، ويعني ببساطة (الآلهة)!!

(أور) المشكلة؟

الحل!

ومرة أخري نجمل المشكلة في موجز يحددها ويوضحها:
التوراة تقول:
*إن الركب الإبراهيمي المهاجر، قد خرج من (أور الكلدانيين) علي الشاطيء الجنوبي لنهر الفرات، يقصد أرض كنعان الفلسطينية، ممايشير إلي أن الجزء الجنوبي من العراق القديم كان هو موطن النبي إبراهيم.
* والمفروض أن كنعان هي فلسطين الحالية، وهي بذلك تقع إلي الغرب من (أور)، تفصلهما مسافة من بادية الشام الأردنية.
* لكن الركب - دونما سبب واضح - يتحول شمالا، ويستمر يضرب مسافات وبلدانا ومواطن، ويتجاوزها جميعا دون توقف، حتي يصل إلي ماتسميه التوراة (حاران)، وقد حدد الباحثون في التوراة موضع (حاران) المقصودة، في أقصي الشمال، داخل الحدود الأرمينية التركية القديمة. وهنا لامندوحة عن التساؤل: لماذا التحول من الطريق المباشر والقصير إلي كنعان، وتجشم مصاعب مضاعفة عدة أضعاف للوصول إليها عن طريق حاران؟ ناهيك عن أن هذه الرحلة التي ماكانت تستغرق علي ظهور الحيوانات أكثر من عشرين يوما مع التلكؤ الشديد، قد استغرقت عن طريق حاران خمسة عشر عاما، أو أن هذه المدة - بالتدقيق التوراتي - هي الزمن الذي انصرم، مابين خروج الركب من (أور) إلي أن وصل (كنعان)!
* والأهم أن (حاران) تبدو في رواية التوراة، كما لو كانت محطة ترانزيت معروفة، علي الطريق من (أور) و(كنعان)، بينما الحقيقة أنها تقع إلي الشمال، بعيدا عن الطريق بمسافات شاسعة.
ثم ماذا تقصد التوراة بهذا الإرباك؟ الذي تضاعفه بالإشارة إلي مواطن أخري للعشيرة الإبراهيمية، فتقول: إن إبراهيم بعد استقراره في كنعان طلب من رئيس عبيده أن يأتيه بزوجة لولده إسحق، من بين أهل موطنه وعشيرته، فما كان من العبد إلا أن ذهب من فوره إلي «مدينة ناحور - تكوين - ٢٤»، وناحور جد إبراهيم، ونفاجأ أن (مدينة ناحور) لاهي (أور)، ولاهي (حاران)، إنما هي (أرام النهرين)! وإحباطا للباحث، فإن التوراة تقص علينا رواية أخري، فقد سار إسحق علي الوفاء الإبراهيمي للأهل والعشيرة، إضافة للحفاظ علي نقاء الدم العبري، لذلك أمر ابنه يعقوب بمغادرة كنعان، ليأتي لنفسه بزوجة من بلاد الأجداد، أو كما تقول التوراة: «فدعا إسحق يعقوب وباركه وأوصاه وقال له: لاتأخذ زوجة من بنات الكنعانيين، قم واذهب إلي **فدان أرام**، وخذ لنفسك زوجة من هناك، وأن يعقوب سمع لكلام أبيه وأمه، وذهب إلي فدان أرام، فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب إلي **حاران** - تكوين:

٢٧: ١، ٢، ٧، ١٠» فهل ثمة إرباك أكثر من ذلك؟

إسحق يأمر يعقوب بالذهاب إلي موطن الأجداد للحصول علي زوجة والمفروض أن هذا الموطن هو (أور الكلدانيين)، لكن هذا الموطن يصبح في حديث إسحق (فدان أرام)، ويسمع الابن المطيع نصيحة الوالدين طلبا للرضي، وإخلاصا للعرقية، وحفاظا علي نقاء الدم العبري، فتؤكد التوراة أنه «ذهب إلي فدان أرام»، لكن وبذات الإصحاح تؤكد أيضا أنه «خرج.. من بئر سبع وذهب إلي حاران»، هذا إضافة للموطن الذي ذهب إليه عبد إبراهيم من قبل، للحصول علي زوجة لإسحق وهو «أرام النهرين بلد الجد ناحور» ونجد أنفسنا مع التوراة في متاهة من الدروب، كل منها يؤدي إلي موطن محتمل للقبيلة الإبراهيمية: (أور الكلدانيين) و(حاران) و(أرام النهرين) و(فدان أرام).

والغريب في أمر التوراة، أنها بعد أن ذكرت (أور الكلدانيين) كمنطلق للهجرة، **نسيتها تماما**، بينما استمرت تضرب علي تأكيد الأصل الحاراني مرة، والآرامي مرة أخري، أما الجملة التي لم تمل تأكيدها فهي: أن إبراهيم كان «أراميا تائها ـ التثنية: ٢٦: ٥».

وقد ظلت مسألة (حاراني) و(أرامي) تؤرقني فترة من الوقت، اضطررت أثناءها إلي التوقف عن الكتابة في هذا البحث، وانهمكت في استكمال خطة بحث آخر حول رحلة الخروج الموسوية من مصر، وكانت أهم عقبات البحث في الخروج، تحديد كم هائل من مسميات المواضع والقبائل والشعوب بشكل دقيق، ومن هذه الشعوب الشعب الذي ذكرته التوراة باسم (الحيثيين)، وذهبت وراء المصادر أجمع المادة العلمية اللازمة عن الحيثيين، حيث اكتشفت حل مسألة (حاراني)، (أرامي) وعدت مع الكشف لاستكمال بحثنا هذا.

والحيثيون شعب قديم، عاش في أواسط بلاد الترك القديمة، وقد تمكن من إقامة دولة كبيرة شمالي بلاد الشام، بعد أن تمكن من القضاء علي دولة كانت قائمة في المنطقة، كانت تعرف باسم دولة (الحوريين) وحمل شعبها اسم الشعب الحوري، أما الأرض نفسها التي قامت فيها الدولة الحيثية الطالعة، فكانت تعرف باسم بلاد الحور[1] ومن هنا أدركت بداهة الأمر وبساطة الحل.

---

١ ـ حول الشعب الحوري والشعب الحيثي، ارجع إلي: أ.ر.جرني: الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر محمد، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٣. ويمكن الرجوع إلي مصادر مختصرة مثل: موسوعة تاريخ العالم، لمجموعة من العلماء باشراف وليم لانجر، ترجمتها مجموعة من الأساتذة بإشراف د. مصطفي زيادة، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، د.ت ج١، ص٦١. انظر أيضا: الموسوعة العربية الميسرة. انظر أيضا: الموسوعة الأثرية العالمية بإشراف ليونارد كوتريل وتأليف ٤٨ عالما أثريا، ترجمة د. محمد عبد القادر ود. زكي اسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧، وعن علاقة الحيثيين بالمصريين انظر: سير آلن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧، ص١٧٩.

فإذا كانت الدويلات الآرامية قد تناثرت بطول الحزام الشمالي الذي عرف ببلاد الحور، فإن ذلك يفسر لنا إصرار التوراة علي القول بالأصل الحوري والآرامي معا للقبيلة الإبراهيمية، وعليه لا أعتقد أني أجافي الصواب إذا افترضت أن حاران التوراتية، لم يقصد بها مدينة محددة بعينها (تلك التي تقع شمالي بلاد الشام داخل الحدود الأرمينية، التركية القديمة)، قدر ما قصد بها في التوراة منطقة واسعة شاسعة، تضم مجموعة الدويلات الآرامية (آرام صوبة، آرام النهرين، آرام معكة، فدان آرام، آرام بيت رحوب... الخ) تلك الدويلات التي ضمتها بلاد الحور أو الحوريون.

وإن هذا الفرض يفسر لنا بوضوح كاشف ومضيء، قول التوراة: إن يعقوب خرج يقصد (فدان آرام) ليأتي لنفسه بزوجة، فذهب إلي (حاران)، ولايبقي هناك تضارب فقد ذهب يعقوب إلي مدينة «فدان آرام» الواقعة في بلاد (حاران) أو بلاد (الحور) كما يفسر لنا هذا الفرض، بوضوح لايقبل جدلا، قول التوراة: إن آرام النهرين «هي مدينة ناحور ـ تكوين: ٢٤ : ١٠»، وناحور جد إبراهيم (عليه السلام)، ولايفوت المهتم بالألسنية والحفر اللغوي، علامة مهمة في الاسم (ناحور) تؤيد فرضنا وتدعمه، فناحور صاحب مدينة آرام النهرين، أو القاطن بها، ينطق أيضا (ناحار)، مثل (هارون)، و(هاران)، وبالقلب المعروف في اللسان السامي، يقلب الاسم (ناحار) إلي (حاران)!!

وهكذا فقد تصورنا بهذا الفرض أننا قد وجدنا حل التضارب بين (آرامي)، (حاراني) كأصل للعشيرة الإبراهيمية، لكن يبقي الإشكال قائما، ببقاء مشكلة (أور الكلدانيين) التي سببت لنا إرباكا شديداً، وظلت غير متفقة مع باقي سياق الرواية التوراتية من وجهتين:

* الوجهة الأولي: أنها تختلف مكانيا مع حاران أو بلاد الحور، حيث تقع (أور) في أقصي الجنوب، وتقع بلاد الحور في أقصي الشمال.

* الوجهة الثانية: أنها تختلف زمانيا، حيث لم تقم دولة الكلدان إلا بعد أن انقضي زمان النبي إبراهيم (عليه السلام) بحوالي ألف عام أو يزيد.

ومن المعلوم للباحثين أن اللفظة (أورUR) تدل علي معني المدينة بوجه عام، فإضافة إلي (أور) الرافدية التي نسبتها التوراة للكلدانيين، واكتشف تاريخها العريق حديثا، في أطلال مغير قرب مصب الفرات في الخليج العربي، هناك (أور) أخري متعددة، فلدينا (أورشليم) أو مدينة السلام، المدينة المقدسة عاصمة دولة يهوذا، و(أوركومينوس) باليونان، و(أوروك) بالعراق

أيضا، و(أور ـ أرتو) علي جبال أرمينيا قرب بحيرة (فان) والمعروفة باسم (أرارات) وغيرها كثير.

والتوراة تقول: إن كارثة الطوفان قد أدت إلي انتقال قوم من موضع الكارثة بسفينة كبيرة، إلي جبال (أرارات) حيث ألقت السفينة مراسيها، ومما يؤكد أن (أرارات) المذكورة في التوراة تقع في أرمينيا، ماذكره المؤرخ (هروشيوش) أو (أورسيوس) المولود حوالي ٣٧٥م، وسجل فيه ذكريات الأمم الخوالي، وأكد أن السفينة النوحية قد ألقت مراسيها علي «الجبل الذي بأرمانية».[١]

وفي الوقت ذاته تؤكد التوراة: أن إبراهيم من نسل (أرفكشد بن سام ابن نوح)، مما أثار لدينا التساؤل: هل قصدت التوراة بـ (أور) مدينة أخري تحمل ذات الاسم، ربما كانت تقع في منطقة الدويلات الآرامية (بلاد الحور)، قرب (أور) التي ألقت السفينة النوحية مراسيها قربها، أو هي (أور ـ أرتو) ذاتها؟

ومن هنا كان شكنا في الترجمة العربية للتوراة العبرية، وعدنا نبحث مشكلة مدي مصداقية هذه الترجمة، وتحول الشك يقينا، عندما تأكد أنه ليس في الأصل العبري أية (أور كلدانيين)، إنما كانت هناك (أور كسديم)[٢]، وهي ما لا يمكن ترجمتها بحال إلي (أور الكلدانيين)، ويجب أن تظل كما هي (أوركسديم) ونبحث عن معناها الصادق، وهو مايلتقي تماما مع فرضنا الذي ذهبنا إليه، وإلي قارئي عناصر هذا اللقاء الحميم، وربما المذهل!!

---

١ ـ بول أورسيوس: تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة في منتصف القرن الرابع الهجري، حققها وقدم لها د. عبد الرحمن بدوي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص٦٢، ص٨٥.

٢ ـ تمكن باحث مجتهد، بجودة وبراعة، هو د. كمال صليبي، من الاجتراء علي إنكار أن تكون فلسطين هي كنعان التوراتية، وزعم أن كنعان تقع في جبال عسير بجزيرة العرب، مخالفا ـ بذلك ـ الجميع تقريبا، لكنه للأسف ـ وباعترافه هو ـ لم يحاول القيام بجهد مواز في الجانب التاريخي، إنما ركز اهتمامه علي المقارنات اللغوية بين أسماء المواقع التي وردت في التوراة، كأسماء لبلدان وقبائل وأشخاص ومواضع في كنعان التوراتية وبين مايقابلها في منطقة عسير (فيما ذهب إليه).

ورغم احترامنا لجهد د. صليبي، ورغم أن هذا الجهد في بعض جوانبه يدعم فروضنا القادمة، حول رحلة النبي إبراهيم إلي الجزيرة العربية، فإننا قد فضلنا عدم المجازفة مع د. صليبي «إلي أن تطرأ أدلة كافية علي مذهبه، ومن هنا سيذهب فرضنا أن النبي إبراهيم، قام برحلته إلي جزيرة العرب وعاد منها إلي فلسطين، التي هي عند الباحثين حتي الآن كنعان التوراتية، ولأن د. صليبي كان متمكنا من بحثه اللغوي، فقد أخذنا عنه حفره وراء ثلاث كلمات فقط سترد في بحثنا هذا، أولها (أوركسديم) التي وردت في بحثه المعنون (التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ط٢، ص٤٩).

أولا: لنقف قليلا مع الاسم (أرفكشد بن سام بن نوح) جد النبي إبراهيم، الذي وضع بين يديٍّ وصلات الأمر المبعثر، فإذا كانت الفاء تختلط بالباء، وتتبادل معها في اللسان القديم (وحتي اليوم)، وإذا كان حرف «ش» يتبادل مع حرف «س» في اللغات السامية وكثير من اللغات الأخري، فإن الاسم (أرفكشد) ينطق أيضا ـ نطقا صحيحا تماما ـ (أربكسد).

والمنطقة الواقعة جغرافيا بين جبال أرارات الأرمينية، وبين بلاد الحور كانت تعرف باسم (أرابخيتيس)، وتعرف حاليا باسم (البك)، وبعلمنا أن لسان هذه المنطقة هندوأوروبي، فإنه بحذف التصريف الاسمي (الياء والسين الأخيرة) في كلمة (أرابخيتيس) تصبح (أرابخسد)، وبتبادل حرف (ك) مع حرف (خ) في اللسانين السامي والهندوأوروبي، فإنه يسوغ لنا القول دون تردد: إن «أرابخسد» هي ذات التسمية (أربكسد) وعينها.

ثانيا: مع مانعرفه عن الخاصية التوراتية، في تسمية البلدان بأسماء الأبطال، فإن اسم المنطقة (أربكسد) يلتقي تماما مع بطل من أبطال التوراة، هو (أربكسد) أو (أرفخشد) ابن سام ابن نوح، جد النبي إبراهيم[1]، ولانعتقد أننا مخطئون إن احتسبنا منطقه (ربكسد) هي المعنية فى التوراة بـ(أور الكلدانيين)، التي هي في الأصل العبري (أوركسديم)، و(كسديم) جمع عبري للمفرد (كسد) فهي (أوركسد) أو (أوربكسد) أو (أربكسد).

ثالثا: إن أهم مايؤيد هذا الحفر اللغوي، هو التسمية التي أطلقها أهل الرافدين القديم علي سكان تلك المناطق الشمالية، وكانوا يشكلون خطرا داهما علي البلاد، وقد غزوا بلاد الرافدين فعلا، ودمروا بابل واحتلوها زمنا، وأسسوا مايعرف باسم دولة بابل الثالثة، هؤلاء هم من تشير إليهم النصوص الرافدية القديمة باسم (الكاسيين) أو الـ (كاسي) ولوجمعنا المفرد (كاسي) باللسان العبري، فإنه يصبح (كسديم)!! فهل ترانا قد عثرنا علي دليل مبين؟

رابعا: إن في التوراة ذاتها مايؤكد مذهبنا في موطن النبي إبراهيم الأصلي، فالنبي إبراهيم كماهو معلوم يعود بأرومته إلي جده البعيد (سام بن نوح) وكان

---

١ ـ نبهنا إلي الربط بين (أرابخيتيس) و(أربكسد بن سام بن نوح)، جهدا لنولدكه ابتغي هدفا آخر تماما، هو الوصول إلي القول إن أرمينيا هي جنة عدن التي حدثت عنها التوراة وقد وجبت الإشارة هنا إعمالا لمبدأ الأمانة العلمية، انظر ذلك موجزا في:

Noldek Semitic Languages, Encyclopaedia,Britannic, 2The d, 1911, vol 24 Coll 617-630

لسام أخوان هما (حام) و(يافث) وتحكي التوراة ـ كما أسلفنا ـ أن نوح لعن النسل الكنعاني من أبناء حام، وبارك سام ونسله بالقول «مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم ـ تكوين: ٩ : ١٨ـ ٢٧».

وحسب التقسيم التوراتي للأجناس (التكوين: ١٠) فإن سام هو أبو كل بني عابر وبني آرام وبني أرفكشاد، والعجيب أن كاتب هذا الجزء من التوراة، كانت لديه معلومة تقول: إن يافث ونسله كانوا يساكنون سام ونسله «ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام»، وحسب التقسيم التوراتي للأجناس، فإن يافث هو أبو الترك والصقالبة القدماء، وهم ليسوا شيئا آخر سوي سكان بلاد الحور الأرمينية وماجاورها، أفلا يعني ذلك أن مساكن سام التي سكنها يافث، كانت في المنطقة التي حددناها وعيناها كموطن أول للعشيرة الإبراهيمية؟!

خامسا: إن (ماير) يشير إلي معلومة قديمة متوارثة، تعطينا خاتما توثيقيا علي ما ارتأيناه، فيقول: «كان الرأي السائد قديما أن مدينة أور تقع أعالي مابين النهرين، ولكن الاكتشافات الحديثة أثبتت أنها تقع في الجنوب في أطلال مغير، بالقرب من مصب نهر الفرات في الخليج الفارسي»[1]

وهكذا فإن (ماير) يلقي بمعلومة قديمة متوارثة من وراء ظهره، تقول إن (أور) تقع أعالي مابين النهرين، وهو ماحددناه، بلاد الحور الأرمينية، لكن (ماير) لم يلتفت إلي أن الاكتشافات الحديثة، كشفت فقط عن مدينة تسمي (أور) تحت أطلال مغير العراقية، لكنها لم تكشف عن أصول العشيرة الإبراهيمية هناك، وتم هذا الربط من جانب الباحثين التوراتيين، فربطوا (أور الكلدانيين) ـ وهي كما علمنا ترجمة خاطئة ـ وبين أور المكتشفة في جنوب العراق وقد علمنا أنها (أوركسديم) أو (أور الكاسيين) في منطقة (أرابخيتيس) الحورية، وهي علي مايبدو كانت معلومة شفاهية قديمة، مجهولة المصدر والزمان، ظلت تتواتر شفاهة، ولكن رفضها الباحثون بعد الكشف عن (أور) العراقية.

وتأسيسا علي كل ما أوردناه، وإعمالا لمجموعة القرائن التي توصلنا إليها، فإنه لم يعد هناك أي مبرر للبحث عن حاران تجاور أور الكلدانيين، أو أور العراقية، كما حاولت الخريطة المرفقة بالتوراة أن تفعل، ولايعد مرور النبي إبراهيم (عليه السلام) بمنطقة حاران فى اقصى الشمال داخل الحدود التركية الحاليةمثيرا للتساؤل أو الاستغراب!! لأنه في هذه الحال لم ينطلق من (أور الكلدانيين) في الجنوب، متجها إلي (حاران) في أقصي الشمال، ليعود مرة أخري جنوبا نحو كنعان، إنما ستتسق الأمور ـ وفق طرحنا ـ وتتضبط فيغادر النبي

١ ـ ماير: حياة إبراهيم...، ص١٢.

منطقة (أربكسد) المعروفة حاليا باسم (إلبك) جنوب غربي أرمينيا، ويتجه إلي بلاد الحور أو (حاران)، وتصبح حاران بذلك محطة ترانزيت منطقية تماما في الطريق إلي كنعان كما يصبح مفهوما إشارة التوراة المترجمة لكافة اللغات ومنها العربية (عن الأصل العبري) أنه خرج منها، دون سبب واحد تبرر به ذلك، ورغم إشاراتها المتعددة والمتكررة التي تؤكد آرامية النبي إبراهيم.

وهكذا يتضح أن العشيرة الإبراهيمية، وافدة علي المنطقة من جنوب أرمينيا، وقد وصفت التوراة إبراهيم (عليه السلام) بأنه رجل آرامي، وأقر التراث الإسلامي أنه ليس من أبناء الجنس العربي، وأن لسانه لم يكن عربيا، وقال ابن هشام في السيرة: إن لسانه كان سريانيا (لسان شمالي بلاد الشام)، ولكنه عندما عبر نهر الأردن إلي كنعان حول الله لسانه إلي اللغة العبرانية[1] وربما يكون تفسير هذه الهجرة، في حديث المسعودي عن حدثان الطبيعة، وقوله: «ولما قبض ساروغ قام من بعده ناحور بن ساروغ، مقتديا بمن سلف من آبائه **وحدث رجف وزلازل** لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله، وكانت في أيامه حروب وتحزيب أحزاب»[2]، و(ساروغ) هو (سروج) في التوراة، أبو ناحور، جد إبراهيم النبي، المعني هنا أن ثمة ضغطا قد حدث دفع شعوب هذه المنطقة الحورية للخروج في موجات متتابعة من الهجرات، وربما تمثل هذا الضغط في كارثة طبيعية أو مجموعة كوارث متتابعة تفسر الهجرات المتتابعة التي هبطت علي المنطقة، منهم النبي إبراهيم أو قبيلته، الكاسيين، الهكسوس... الخ، وقد أضفت الملحوظة المطولة التالية التي بين القوسين الكبيرين، بعد مطالعتي لخبر جاء بصحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٣/١٢/٨٩، وذلك أثناء مراجعتي لطباعة البروفة الأولي للكتاب، والخبر تحت عنوان ﴿نظرية علمية جديدة تقول: **ثورات البراكين ابتلعت بعض الحضارات القديمة**: طبقا لنظرية جديدة توصل إليها العالم البريطاني الدكتور مايكل بايلي، فإنه من المرجح أن تكون عدة حضارات في أنحاء العالم قد تعرضت للدمار بسبب الثورات البركانية التي دمرت ـ فيما دمرت ـ جزيرة ثيرا في بحر إيجا (لاحظ هنا أنه قد حدثت أيضا هجرات كاسحة من بحر إيجة لسواحل البحر المتوسط الشرقية قرب نفس الزمان والملحوظة من عندنا)، وطبقا لما تقوله النظرية الجديدة فإن السلالة الحاكمة الصينية في ذلك الوقت كانت من بين ضحايا

---

١ ـ أبو القاسم السهيلي: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، ضبط وتعليق طه عبد الرءوف، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص١٦.

٢ ـ أبو الحسن المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد المكتبة الإسلامية، بيروت، د.ت، ج١، ص٤٤.

هذه الثورات البركانية، وقد أسس الدكتور بايلي نظريته علي نتائج دراسة لعينات من خشب البلوط القديمة يرجع عهدها إلي وقت الثورة البركانية التي دمرت جزيرة ثيرا **في القرن السابع عشر قبل الميلاد** (لاحظ أنه الوقت الذي ظهرت فيه القبيلة الإبراهيمية ١٧٠٠ق.م، والإشارة من عندنا) حيث لاحظ الدكتور بايلي أن معدل نمو أشجار البلوط في ذلك الوقت كان بطيئا بسبب ضعف ضوء الشمس والبرودة الزائدة التي نتجت عن تصاعد كميات كبيرة من الغبار إلي الغلاف الجوي بعد الانفجار البركاني، وفي معهد التكنولوجيا في باسادينا بولاية كاليفورنيا الأمريكية توصل عالم من أصل صيني، ويدعي كيفين بانج إلي نتائج تدعم نظرية بايلي، فقد أجري بانج أبحاثه مستخدما الكمبيوتر، وتوصل إلي أن النشاط البركاني كان سببا في إنهاء السلالة الحاكمة شانج أثناء العصر البرونزي، وحدث خسوف للشمس وفيضانات وأوبئة..﴾ ونعود الآن لصلب موضوعنا.

إذا كانت التوراة قد وصفت النبي إبراهيم (عليه السلام) بأنه رجل آرامي، فقد انتهينا إلي أنه رجل (حوري) أيضا، ولم يزل اللسان الشامي يحتفظ إلي الآن بهذا المعني، فرجل الدين أو الكاهن هو (الخوري)، والخاء تختلط بالحاء دون ضير، ممايشير إلي أن الاشتغال بأمور الدين، كان يغلب علي أهله العنصر الحوري، لذلك كان جليا في التوراة أبوة إبراهيم (عليه السلام) للأنبياء، ولايغيب عن الخاطر أنه في المنطقة الحدودية بين المنطقة الكاسية الهندوأوروبية والمنطقة العراقية والكنعانية وهي سامية، كان سهلا أن يتبادل حرف (ح) مع حرف (أ) أو مع الهمزة، ومن هنا كان ممكنا أيضا أن تنطق حور الواقعة في المنطقة الكاسية أو (حور الكاسيين) بالنطق (أور ـ كاسيين)، والتي يجب نطقها عبريا (أور ـ كسديم)!

وقد تبدو النتائج التي وصلنا إليها مخالفة لما تعارف عليه جمهور الباحثين وخاصة أن كثيرا من البحوث قد أثبتت تطابق ميثولوجيا التوراة مع ماكشف عنه من تراث رافدي، ممايشير إلي أن أصل العبريين يعود فعلا إلي العراق، بل إن هذا التطابق في المأثور كان من أهم أسباب تأكيد (أور) العراقية كموطن أول للعشيرة الإبراهيمية، وفسر التطابق بين المأثورين بأن العبريين قد أخذوا معهم التراث الرافدي ليسجل بعد ذلك كعقائد في التوراة، بل إن كاتب هذه الدراسة مر عليه وقت

كان يأخذ بهذه النظرية في بعض بحوثه المنشورة، لكننا الآن نري أن تطابق المأثور التوراتي مع التراث الرافدي القديم، لايعني بالضرورة أن أهل التوراة كانوا من أهل العراق، إنما نجد للأمر أسبابا أخري لعل أهمها أن أهل الرافدين من بابليين وأشوريين، عندما حطموا المملكتين العبرانيتين: يهوذا والسامرة، بعد عصر إبراهيم (عليه السلام) بأكثر من ألف عام، واستاقوا اليهود أسري ليعيشوا علي ضفاف دجلة والفرات، في عبق التاريخ العريق، تعرف العبريون الأسري هناك علي المأثور الرافدي، وتمثلوه بعد طول مقام، هو ذات الأثر الذي تركه التراث المصري والكنعاني في التوراة، واصطنع العبريون لأنفسهم تراثا تم استخلاصه من تراث المنطقة، التي كانت تموج بظواهر التحضر، ومايلزم عنه ويفرزه، ولعل أهم دعم لهذا الرأي هو إجماع الباحثين في التوراة ـ تقريبا ـ علي أن الأسفار الخمسة الأولي من الكتاب المقدس (وهي التي يطلق عليها تحديدا اسم التوراة، وهي الأسفار التي أجريت عليها دراسات ومقارنات شتي مع المأثور الرافدي، والتي حوت معظم مايتصل بالتراث العراقي) لم تكتب قبل عام ٤٠٠ق.م، هذا ونعلم أن الأسر الآشوري لليهود قد بدأ عام ٧٢٢ق.م، أي أن الأسفار التوراتية التي تطابق المأثور العراقي، قد كتبت بأثر لا جدال فيه لهذا المأثور فهل لم يزل ثمة نقاش؟

ولاتفوتنا الإشارة إلى أمر بالغ الأهمية لأمرنا هنا، وكثيرا ما أثار عجب الباحثين ودهشتهم، وهو أن طوائف تعيش اليوم في جنوب روسيا تتكلم اللغة الآرامية القديمة[1] المحسوبة من اللغات السامية، ومع بحثنا يزول هذا العجب، لأن من هذه المنطقة قدم أصحاب اللسان الآرامي في القديم، ويحمل اسمها (أرمينيا) معني الآرامية.

وآخر أدلتنا علي الأصل الخوري أو الحوري أو الآرامي للقبائل الإبراهيمية، وأنها كانت عناصر وافدة علي المنطقة، يضطرنا إلي وقفة سريعة عجلي مع النبي موسي التوراتي وإلهه (يهوه) المنطوق عبريا (جاهوفاه ـ بتعطيش الجيم وبفاء مثلثة التنقيط) وقد قصدنا التعبير (موسي التوراتي) قصدا، لتمييزه عن النبي موسي (عليه السلام) كما يعرفه المسلمون.

ومن المعلوم أن موسي التوراتي، قد نشأ في كنف فرعون مصر وربا في بلاطه، لكنه تورط في جريمة قتل، قتل فيها مصريا انتصارا لواحد من بني جلدته، فهرب

---

١ ـ أورد ذلك (موسكاتي) دون أن يعني ما ذهبنا إليه، انظر في ذلك: الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. يعقوب السيد بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٧، ص١٨١.

من البلاد خوف القصاص ونزل البلاد الموسومة في التوراة بالاسم (مديان) وقد حددها أهل التوراة في سيناء مع امتداد إلي الشرق شمالي جزيرة العرب، وسار الآخرون خلفهم، وتم تسجيلها علي الخرائط علي هذا الأساس، لكن مع البحث والتقصي فإننا لانجد في نصوص مصر القديمة مايشير إلي بلاد في سيناء، أو علي الحدود الشرقية لمصر، تعرف باسم (مديان) والمفترض أن مصر تعرف حدودها جيدا، نعم هذه النصوص تتحدث عن بلاد باسم (ميتان) أو بالقلب (متيان)، لكن هذه البلاد تقع في أقصي حدود الامبراطورية المصرية شمالا، وليست علي الحدود السينائية، بمعني أن (متيان) هذه تقع وفق النصوص المصرية فوق الحزام الشمالي لبلاد الشام الخاضعة آنذاك للحكم المصري.

ومن هنا ذهب بي الظن إلي أن (ميتان) أو (ميتاني) التي ذكرتها النصوص المصرية، ربما كانت هي (مديان) في قصة موسي التوراتي، خاصة إذا ماتذكرنا أن اللسان المصري الرقيق كان يقلب حرف (د) إلي (ت)، فلماذا لاتكون (ميتان) باللسان المصري هي (مديان) باللسان العبري؟

وربما يعضد ذلك أن مصر آنذاك، كانت قد طوت تحت جناحها الأيمن كل بلاد الشام حتي الفرات شرقا، أما آخر حدودها الشمالية فكان هو بلاد (ميتان) والتي كانت عثرة علي الحدود الشمالية، فكانت تبدي الخضوع لمصر، وتصطنع لها الود، لكنها كثيرا مالعبت دورا رديئا في مساعدة الثورات الإقليمية، التي كانت تنشب هناك، وماكان ممكنا لهارب من العدالة أن يظل داخل أي أرض مصرية، ومن ثم كان الهروب المناسب هو إلي بلاد ميتان أو مديان، أما أهم مافي هذه الجزئية فهو أن بلاد مديان هذه إنما كانت جزءا من بلاد الحور، وضمن الحزام الشمالي الذي سبق وجاء منه أجداد موسي التوراتي في زعمنا.

وتقول التوراة في قصة الخلق: إن أصل البشرية خرج من مكان علي الأرض يدعي جنة عدن، وأن من هذا المكان تنبع أنهار أربعة هي: دجلة والفرات وفيشون وجيحون، وأن من النسل الذي عاش في جنة عدن، جاء بنو عابر، الشعب المختار، أو بالنص التوراتي:

> وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا...
> وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة.
> ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس، اسم الواحد
> فيشون وهو المحيط بجميع أرض
> الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض

جـــيـــــد، هـنـاك المقل وحــــجــــر الجـــزع،
واسـم الـنـهـــر الـثـــانـي جـــيــــحـــون، وهـو
المحيط بجميع أرض كـوش، واسم النهر الثالث حداقل وهو
الجـاري شــرقي آشـــور والـنـهـــر الـرابع الـفـــرات.
تكوين: ٢: ٨ ـ ١٤.

وبالبحث فإنك لايمكنك العثور في المنطقة علي موضع تنبع منه أنهار أربعة، سوي قمم أرمينيا، وهو ما افترضناه موطنا أصليا للعشيرة الإبراهيمية، ومن هذه القمم ينبع نهرا دجلة والفرات، ويستديران غربا فجنوبا إلي أن يصبا في الخليج العربي، ومن ذات القمم ينبع نهرا (كورا) و(أراكس) ليصبا في بحر قزوين، ولعل قصة التوراة في حديثها عن خروج أبي البشر من جنة عدن، إنما كانت تردد قصة خروج آبائهم هم من منطقة منابع الأنهار الأربعة، لتستوطن جنوبا، لأسباب مازالت تحتاج بحثا وتقصيا جلدا، وربما كان المأثور الذي ذكره المسعودي، عن الرجف والزلازل وتحزيب الأحزاب، مؤشرا للطريق الواجب اتباعه.

ولعل موسي التوراتي، عندما فر إلي تلك البلاد، استعاد هناك أطياف الجدود والجلدة، وتعرف علي إلهه (جاهوڤاه) وعاد يخبر أهله في مصر، بأن (جاهوڤاه) يطلب خروجهم من مصر، إلي أرض تصفها التوراة دوما بالقول: «أرض اللبن والعسل» و«جنة الرب» وعليه فإن موسي كان يقصد تماما بلاد أرابخيتيس **الحورية**، ولم يزل مأثورنا الشعبي يتحدث عن الحوريات ونساء الحور، وأما الجنة ففيها أجمل النساء: **الحوريات**! وفي الأحاديث النبوية عن مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة، وقال كعب: نهر دجلة نهر بالجنة[1] ولاننسي أن كعب من أصل عبراني يهودي، وفي الحديث أنها جميعا تنبع من الجنة من تحت عرش الرحمن، وأن من أنهار الجنة في سورة محمد، نهر لبن، ونهر العسل، والتوراة تقول عن الأرض الموعودة «أرض اللبن والعسل»!

---

١ ـ شمس الدين القرطبي: التذكرة في أحوال الموتي وأمور الآخرة، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، المكتبة العلمية، بيروت، ج١، ص٥٣٨.

وفي هذه النقطة نشير إلي أنه قد سبق لنا كتابة بحث حول جنة عدن التوراتية بعنوان: (وفي جزيرة العرب كانت جنات عدن) ونشرته مجلة المنار، وأشرت فيه إلي أن هذه الجنة التوراتية تقع في اليمن، بعد أن التبس عليّ أمر الرحلة الإبراهيمية، وقد انصرمت منذ كتابته حتي الآن خمس سنوات كانت كفيلة بإعادة النظر في المسألة، لذلك وجب التنويه.

أما أسطع البراهين علي أن رحلة الخروج من مصر بقيادة موسي التوراتي، كانت تبتغي بلاد الحور، فهو قول (جاهوڤاه) لموسي التوراتي، أنه سيرسل علي أهالي تلك البلاد **قواته الجوية** مقدما، لتمهيد الأرض أمام المشاة العبرانية، أو نصيا:

وأرسل أمامك الزنابير،
فتطرد الحيثيين والكنعانيين والفرزيين والحويين.
خروج: ٣٤: ١١.

ثم لايلبث جاهوڤاه - زيادة في الاطمئنان - أن ينزل بنفسه لقيادة المعترك له، ويقول:

فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين، وأصعدهم من تلك الأرض، إلي أرض جيدة وواسعة، تفيض لبنا، وعسلا إلي مكان الكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين.
خروج: ٣: ٨.

والبرهان هنا علي صدق أطروحاتنا أن جاهوڤاه سيطرد من الطريق: الأموريين والكنعانيين، وهم تاريخيا شعوب انتشرت في الطريق بين مصر وبلاد الحور، لكن إذا كانت فلسطين هي الغرض، فما بال رب التوراة يريد طرد الحيثيين منها؟ ولاحيثيين بفلسطين!! إنما مايعلمه التاريخ هو وجود دولة باسم دولة الحيثيين، كانت تقع إلي الشمال والغرب من (ميتان)، أو ما افترضناها (مديان)، وهي بهذا التحديد إنما تقع تحديدا داخل بلاد الحور!!

ثم من هم الحويون؟ بالبحث لاتجد أبدا شعبا في المنطقة عرف بهذا الاسم، إنما يوجد الحوريون، ومن المعلوم أن بعض اللهجات كانت تسقط حرف الراء، ولم يزل منتشرا في بعض اللغات بشكل حاد، وينتشر فرادي فيما يعرف بلثغ اللسان، وكان قديما وحديثا من خصائص شعوب بعينها، وربما لا نجانب الصواب كثيرا، إن افترضنا هؤلاء (الحويين) هم (الحوريون).

وهكذا، فإننا بإزاء بلاد يريدها موسي التوراتي، ليست هي فلسطين إنما تقع إلي أقصي الشمال، وليست فلسطين وأهلها الكنعانيون ليسوا سوي عقبة في الطريق، سيمطرها جاهوڤاه بالزنابير، والفرزيون أمرهم مجهول، **وربما أهلكتهم القوات الجوية!!** لكن موسي التوراتي يموت قبل تحقيق المراد، ولايدخل الأرض التي خرج إليها وعاش يحلم بها، أرض الأجداد، بلاد الحور وجنة اللبن والعسل، ويترك لأتباعه استكمال المهمة، لكن كان واضحا أن همم الأتباع قد قصرت عن كل المبتغي، وتوقفت عند حدود فلسطين.

أما أخر قرينة لدينا علي مقدم القبيلة الإبراهيمية من جنوب أرمينيا، حيث المنطقة الحورية أو الكاسية أو (أوركسديم)، فهو مستمد من كتب التراث الإسلامية، التي تحدثنا عن أخبار عرب الجزيرة، وأصولهم الأولي، فيقول ابن هشام: إن العرب كلها من ولد إسماعيل وقحطان[1]، ومعروف أن إسماعيل هو ابن النبي إبراهيم، ومعروف أيضا هذا الإصرار الغريب في كتب التراث علي تقسيم العرب إلي إسماعيلية وقحطانية، ومعروف كذلك أن القحطانيين هم من سكان جنوب الجزيرة أصلا، وهم الذين انتشروا في الجزيرة باسم العرب العاربة، أي الراسخة في العروبية، أما العرب الإسماعيلية فهم العرب العدنانية، وهم العرب المستعربة، أي لم يكونوا عربا إنما اكتسبوا العروبية، وسكنوا شمال الجزيرة وامتدادها مع بادية الشام، نحو الشمال، علي الخط القادم من الموطن الذي افترضناه موطنا أول للعشيرة الإبراهيمية.

ولنلحظ أن العرب الإسماعيلية قد أطلق عليهم: العرب العدنانية؟ فهل يشير ذلك إلي ذكري في التراث عن أصل هؤلاء؟ وقصد منها التعريف بموطنهم (عدن) أو ما أطلقت عليه التوراة (جنة عدن)؟ حيث الأنهار الأربعة، ربما، وربما كان هبوط بعض هؤلاء وتوغلهم جنوبا في جزيرة العرب، هو الذي أعطي مدينة (عدن) اليمنية اسمها الحالي، تيمنا بعدن الأصلية في الشمال حيث جنة الحور الكاسية.

ربما؟!

وإذا كنا قد ذهبنا إلي أن العدنانيين ليسوا عربا أصلاء، وإنما قدموا من (أور الكاسيين)، أو أنهم إحدي القبائل الكاسية، فإننا نجد كتب التراث لم تزل تحفظ بين طياتها قولا رائع الدلالة والتوافق والتناغم مع مذهبنا، فتقول السيرة الحلبية: «وولد عدنان يقال لهم: **قيس**، وولد قحطان يقال لهم يمن»[2]

ولعلنا لسنا بحاجة إلي إيضاح أن (كاسي) هي (قيسي)، وإذا كنا قد زعمنا أن القبيلة العدنانية (النسل الإبراهيمي) قد وفدت ضمن مجموعة من الهجرات المتدفقة علي شكل موجات متلاحقة من المنطقة الكاسية، وقلنا أن من أكبر هذه الهجرات وأخطرها، الكاسيين الذين هبطوا في غزو بربري كاسح علي دولة بابل الأولي حوالي عام ١٦٠٠ق.م، فإننا نزعم أيضا أن ضمن تلك الموجات المتبربرة، جاءت موجة

---

١ ـ السهيلي: الروض الأنف... ج١، ص١٦.

٢ـ علي برهان الدين الحلبي: السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، إنسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٨.

الهكسوس لتحتل مصر حوالي عام ١٦٨٠ق.م، والهكسوس هو الاصطلاح الذي أطلقه أصحاب البلاد علي الغزاة، وقد ترجمه المؤرخ المصري (مانيثون MMANITHON ـ ٣٠٠ق.م) بمعني الملوك الرعاة، وقد فصل (جيمس هنري برستد J.H.BREASTED) كلمة هكسوس استناداً إلى (يوسفيوس) بحسبانها تتركب من ملصقين، الأول (هك) بمعني ملك، والثاني (سوس) بمعني (راعي)[١]، ولنلحظ أن كلمة (يسوس) تعني (يرعي)، ويؤكد لنا برستد أن كلمة (هكسوس) لفظ دارج في اللغة الآرامية[٢]، و(اللغة الآرامية بالذات وبالتحديد، إذن لك الشكر يا برستد!)، كما لاننسي أن الآرامية والعربية حسب التصنيف اللغوي، من اللغات السامية، كذلك العبرية، وأداة التعريف في هذه المناطق كانت حرف (هـ)، في بداية اللفظ المعرف، وعليه فالكلمة (هكسوس) بعد حذف التصريف الاسمي (حرف السين الأخير)، تصبح (الكاسو) أو (الكاسي)، هذا إضافة إلي أن أشيع الاتجاهات حول الموطن الأصلي للهكسوس هو براري غرب آسيا، وهو اتجاه يشمل منطقة (أرارات) في (أرمينيا)!!

أما المثير حقا، فهو أن هذه المنطقة (مصر وشرقي المتوسط وجزيرة العرب)، لم تعرف الخيول، إلا مع هبوط المتبربرين الشماليين عليها، وقد لفت نظري وأنا أتابع موسوعة تاريخ العالم، في حديثها عن أحداث تاريخ الرافدين عام ١٦٠٠، قولها: «عام ١٦٠٠ق.م، غزا الكاشيون بابل.. حكموها لمدة ٤٥٠ عاما، أصبح الحصان معروفا في مصر وغرب آسيا»[٣]، ومع ذلك لم تربط الموسوعة ولو بالإشارة بين الغزو الكاسي للرافدين، وبين غزو الهكسوس لمصر، وبين الآراميين وأرمينيا؟! ولعل ذلك كله يتضح غرضه، عندما نربطه بما جاء عن أنس في قوله: «إن النبي (صلي الله عليه وسلم) لم يكن شيء أحب إليه بعد النساء من **الخيل**»، وما جاء في كتب الأخبار «أن إسماعيل (عليه السلام) أول من ركب الخيل وكانت وحوشا، أي ومن ثم قيل لها العراب... وقد قال النبي ـ صلي الله عليه **وسلم ـ اركبوا الخيل، فإنها ميراث أبيكم إسماعيل**»[٤] وهو لاشك نوع من ترديد الذاكرة للأيام السوالف، وربط الذكريات القديمة بين هبوط الموجات الشمالية جنوبا، وظهور العرب العدنانية، والحصان.

---

١ ـ جيمس هنري برستد: كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلي الفتح الفارسي، ترجمة د. حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٢٩، ص١٤١.

٢ ـ الموضع نفسه.

٣ـ موسوعة تاريخ العالم: إشراف وليم لانجر، الترجمة بإشراف د. مصطفي زيادة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ج١، ص٥٦.

٤ ـ السيرة الحلبية: ج١، ص٣٠ ـ ٣١.

إبراهيم فى مصر

مع التوراة، نتابع الرحلة الإبراهيمية، بعد أن استقر (إبرام) هونا في (حاران) فتقول إن الرب (إيل) قد التقي بخليله وقال له:

اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك، إلي الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك، وأعظم اسمك، فذهب إبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران، فأخذ إبرام ساراي امرأته، ولوطا ابن أخيه، وكل مقتنياتهما التي اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران، وخرجوا ليذهبوا، إلي أرض كنعان، فأتوا إلي أرض كنعان، وظهر الرب لإبرام، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبني هناك مذبحا للرب الذي ظهر له، ونقل هناك إلي الجبل شرقي بيت إيل، ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب، وحدث جوع في الأرض، فانحدر إبرام إلي مصر ليتغرب هناك، لأن الجوع في الأرض كان شديدا، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة **حسنة المنظر**، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني ويستبقونك قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل إبرام بها إلي مصر، أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدي فرعون، فأخذت المرأة إلي بيت فرعون **فصنع لإبرام خيرا بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال**، فضرب الله فرعون وبيته ضربات عظيمة، بسبب ساراي امرأة إبرام، فدعا فرعون إبرام وقال له: ماهذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتي أخذتها لتكون زوجتي؟

تكوين: ١٢: ١ ـ ١٩

ويعقب (محمد حسني عبد الحميد) في كتابه الذي قدمه الشيخ مخلوف مفتي مصر الأسبق، علي قول إبراهيم لسارة: قولي إنك أختي، بقوله: «**كانا أخوين فعلا، وكان ذلك قبل تشريع تحريم الأخت علي أخيها**، وذهب البعض وراء هذا المذهب وزاد

عليه قوله: لاحاجة إلي تأويل كلام إبراهيم، بأن المقصود أنها أخته في الدين لأن هذا الاعتقاد لم يدع إليه إلا اعتقاد المؤولين، إن هذه الشريعة التي كان عليها إبراهيم، كانت كشريعة موسي ـ عليه السلام ـ دينا، كالأخت والعمة، وقيل في تأييد ذلك: **إن موسي بن عمران، كان متزوجا من عمته**، كما ورد في إصحاح ٢٦ من سفر العدد». [١]

وفي سفر التكوين معني صريح يشير إلي ذلك، في قول إبراهيم: إن سارة هي أخته غير الشقيقة، «وبالحقيقة هي أيضا أختي ابنة أبي، غير أنها ليست ابنة أمي، فصارت لي زوجة ـ تكوين: ٢٠ :١٢»

ومايمكن أن تؤدي إليه هذه الرواية من فهم، دفع الباحث الإسلامي، (د. صابر طعيمة) إلي التعقيب مستنكرا أن التوراة تعني بذلك ودون مواربة، أن «الفرعون المصري قد أخذ المرأة وتزوجها، أو عاشرها واستمتع بها»، كما تعني أن النبي إبراهيم «تنزه نبي عن ذلك، جبان: يقتلونني ويستبقونك، بل إن في النص بعد ذلك معني يجرد إبراهيم من رجولته، فضلا عن إبائه وعظمته كنبي رسول، هذا المعني هو أنه كان ديوثا علي أهله يعيش علي ريعهم، وينعم بثمن امرأته «فصنع إلي إبرام خيرا بسببها». [٢]

ولأن التوراة مقدس لدي المؤمن به علي حاله المتاح، فإن (ماير) يسلم بالرواية، ويستخلص منها العبر والعظات، ورغم أنه في سلسلة كتبه كثيرا ماتحامل علي المصريين بحكم اللعنات التوراتية التي دأبت عليها التوراة، وصبتها علي بني حام، ورغم أنه كثيرا ما أشار لمصر كرمز للدنيا وزينتها مقابل طهارة الإيمان ونقائه، فإنه يحاول في كتابه عن النبي إبراهيم تبرير نزول القبيلة الإبراهيمية مصر، وبخاصة الأنبياء منهم فيقول: «مرت ظروف في تاريخ **شعب الله**، رأينا الله نفسه يأمر عبيده بالالتجاء إلي مصر **مؤقتا**، فعندما كان يعقوب مترددا في الذهاب إلي مصر، وعامل الخوف من تكرار أخطاء الماضي، قال له الرب: أنا إله أبيك، لاتخف من النزول إلي مصر، لأني أجعلك أمة عظيمة هناك، أنا أنزل معك إلي مصر، تكوين: ٤٦ :٣، ٤»

وفي العهد الجديد (الأناجيل) نجد ملاك الرب يظهر ليوسف (رجل مريم أم المسيح) في حلم ويقول له: «قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلي مصر ـ متي: ٢ :١٣».

واضح هنا أن مصر كانت ملجأ لطالب الحمي، لكن النبي يعقوب حفيد النبي إبراهيم كان يخشي نزولها، خوفا من تكرار أخطاء الماضي، فماذا يقصد (ماير)

---

١ ـ محمد حسني عبد الحميد: ابو الأنبياء...، ص١٥٤.

٢ ـ د. صابر طعيمة: التاريخ اليهودي العام...، ج١، ص١٣، ١٤.

بأخطاء الماضي تحديدا؟... تتضح الإجابة في استطراده: «علي أن إبراهيم لم يتلق رسالة صريحة من الله بنزول مصر، بل تصرف بمجرد تفكيره الشخصي، يالها من غلطة شنيعة، ألم يكن خيرا لإبراهيم أن يلقي بكل المسئولية علي الله؟.. عندما فقد إبراهيم إيمانه ونزل مصر، فقد أيضا شجاعته وأقنع زوجته أن تقول عن نفسها إنها أخته، فإنه كان قد سمع عن **فساد أخلاق المصريين**، وخشي أن يقتلوه ليتمكنوا من أخذ سارة، التي كانت علي شيء عظيم من الجمال، رغم تقدمها في السن، **وقد ضلل هذا الكلام المصريين فعلا**، لأن سارة أخذت إلي بيت فرعون، كان هذا الموقف الذي وقفه إبراهيم دليلا علي ضعفه **وجبنه** ولم يستطع أن يجد له مبررا يدافع به عن نفسه، وكانت غلطة شنيعة من شخص عاش بالإيمان كل تلك المدة الماضية، وكادت **هذه الغلطة تعرض النسل الموعود للخطر**».

وهكذا سلم (ماير) عن إيمان بالرواية دون مناقشة، وأخذ منها العظة بحسبان ماحدث للنبي كان أمرا مقصودا ليكون درسا للمؤمنين وعبرة، فيستمر يقول: «وعندما أخذ فرعون سارة، صنع إلي إبرام خيرا جزيلا بسببها، وهذا ماقد يفعله العالم أحيانا لمن يستسلمون له» (يقصد بالعالم مصر).. وعندما يترك الابن الضال بيت أبيه، يخسر كل مايعطي الحياة قيمة حقيقية. **وينحط إلي مستوي الخنازير**، ولو شعر في بداءة الأمر بنشوة السرور الوقتي، للحصول علي الشهوة المشتهاة، إن سقطة إبراهيم في مصر تعطينا صورة عن طبيعته الأصيلة، التي لم تكن نبيلة بأي حال من الأحوال، فإبراهيم بطبيعته الأصيلة **لم يكن يسمو كثيرا عن سائر بني المشرق**، الذين لايترددون عن الكذب لكسب خير أو دفع ضر... إن إلهنا لايشترط توافر الأخلاق النبيلة حتي يتم أجل أعماله، فهو قادر علي أن يخلق من الحجارة أولادا لإبراهيم، نحن بالطبيعة لاشيء، بل نحن نجسون فاسدون، الله لايسمح أن ينبذنا لمجرد خطيئة واحدة، فبالرغم من سقوط النفس المتكرر وتقصيراتها المتعددة، يتابع نعمته فيها، حتي يحررها مماعلق بها من شرور، حذر الرب فرعون بصوته الإلهي، وأمسكه أن يسيء إلي عبده، ففرعون كان لابد أن ينتقم لنفسه من ذلك الشخص الغريب الذي **كذب عليه وخدعه**، حتي إن فرعون لم يستطع أن يمد يده إليه، بل لم يجسر أن يسترد الهدايا التي خلعها عليه كصداق لسارة، **كانت هذه الزيارة لمصر أساسا للثروة الطائلة التي تمتعت بها ذريته فيما بعد**، ولكن الواقع أن الله سمح به لكي يزيد عبده الأمين التصاقا به، ولكي يفصله عن مصدر الشر الذي لصق به طويلا، كم نحن مدينون بالشكر للكتاب المقدس، الذي لم يتردد عن ذكر **خطايا أقدس القديسين، ولاشك أن هذا دليل علي صحة الكتاب**».

حقيقة إن كلام (ماير) هنا يحتاج وقفة تأملية قصيرة عسانا نستعبر من عبره، فمصر رمز الحياة الدنيا، ومع ذلك كانت حمي الأنبياء وملجأهم، وبأوامر صريحة من الرب بذلك، أما خطأ إبراهيم عند (ماير) أنه نزلها دون تفويض بذلك بل بهواه الشخصي، أما همه وشغله الشاغل فهو أن النبي إبراهيم كاد بذلك يعرض النسل العبري للخطر، بدخول بذرة غير عبرية في سلساله، وحتي يكيل للمصريين مزيدا من الشتائم، لم يتورع عن شتم النبي ذاته، ولابأس لديه من استخلاص صفات النبي من التوراة، ويصل إلي أنه «لم يكن يسمو كثيرا عن سائر بني المشرق»، وتعبير سائر بني المشرق درج في التوراة للدلالة علي العرب من أهل البادية، إضافة لما يحمله من معني لدي (ماير) بحسبانه من أهل الغرب، أما أن يذكر الكتاب المقدس هذه الرواية دون تحرج، فهو دليل قاطع علي صدقه، لذلك «كم نحن مدينون بالشكر للكتاب المقدس؟!».

ورغم أن الوقوف مع (ماير) هنا قد يبعدنا قليلا عن صلب موضوعنا، إلا أنه لايصح أيضا المرور علي مثل هذا الحديث دونما وضع الأمور في نصابها الصحيح، ولسنا هنا في موقف الدفاع عن إبراهيم (عليه السلام) فهو نبي رغم كل شيء وأن الذين كتبوا التوراة هم حفدته الذين أصروا علي الزعم الدائم بنقاوة الدم العبري، ومع ذلك فإن أول الكتابات أهمية في التوراة تتعرض منذ البداية، لأول خطر تعرض له نقاء هذا الدم مع أول رجل ذي شأن في تاريخهم، ولاشك أن العقل لايستسيغ إطلاقا وجود نوع من الطهارة المطلقة لشعب كامل خلال قرون طويلة، بحيث تظل بذرته نقية تماما **خاصة مع هذه البداية التي لاتبشر بخير.**

ولأن عددا من الباحثين سبق وناقشوا هذا الأمر عن النبي إبراهيم باستفاضة، فسنقتصر علي مالم يناقشوه، ولم يخطر ببالهم أن يردوه، وهو مايتعلق في القصة بالمصريين ويبدو أنها لم تشغل الباحثين في كثير أو قليل بحسبانهم المصريين القدماء، خاصة مع ذكر فرعون، كفارا ملاعين، رغم أن الواضح في التوراة أن الفساد لم يكن في المصريين، ونحن هنا لانرد أو نواجه طعنا، لكننا فقط نحاول رؤية الحقائق التي لم يرها الأغلبية رغم شدة وضوحها، فالتوراة تقول: إن النبي أوعز لزوجته أن تنكر زوجيته لها وتدعي أنه أخوها، لماذا؟ تجيب التوراة بالحديث منسوبا للنبي «ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك»!! ورغم أن سارة قد تجاوزت من عمرها السبعين، فإن الكاتب التوراتي يصر علي أنها كانت «حسنة جدا!!» ومن هنا أخذها فرعون ليضمها إلي حريمه، لكن بعد أن أمهرها لدي أخيها بصداق جزيل، يقول المستر (ماير) إنه كان أساس الثروة الطائلة التي تمتع بها العبريون بعد ذلك واشتهروا بها، فأي كرم هذا؟ وأي صداق ذاك؟

الفرعون إذن لم يختطف المرأة أو يغتصبها، إنما تزوجها من أخيها، وعندما علم بجلية الأمر ورغم خديعته لم يحاول إيذاء الزوج وهو الملك المطلق، إنما حسب النص قال له: ماهذا الذي صنعت بي؟ ولايمكن أن نفهم من العبارة سوي معني واحد هو: «أي عار ألحقته بي يا رجل عندما زوجتني زوجتك؟!» **أكرر** النص يقول بوضوح: «ماهذا الذي صنعت بي، لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختك، حتي أخذتها لتكون زوجتي؟».

وكان رد الفرعون حسب الرواية التوراتية أن رد سارة إلي زوجها معززة مكرمة، ولم يبقها عنده لحظة بعد علمه بجلي الأمر، وزيادة في الكرم والسماحة ترك صداقها لأخيها، ولم يستعده، ومع ذلك فإن هذا عند (ماير) من فساد أخلاق المصريين؟! ووصف النبي بأنه انحط إلي مستواهم (خنازير) ولم يرتفع النبي عنده عن مستوي (بني المشرق) لكن كل ذلك عند (المستر ماير) كان درسا مقصودا من الله للمؤمنين، حتي لايكونوا كالمصريين، ثم ينصح الشبيبة المؤمنة بالابتعاد عمن «سيعملون علي إضعاف مستوي الحياة الروحية، ويجرون غيرهم إلي طريق العالم، ويقترحون خططا لم تخطر لنا علي بال، **ويجروننا إلي مصر**».[1] متناسيا أن المسيح ذاته، وهو فيما يعتقد (ماير) ربه وإلهه، لم يجد في كونه بأكمله وبأفلاكه وعوالمه ملاذا وحماية سوي مصر!

أما الغريب حقا في شأن الكاتب التوراتي، فهو تكراره لذات المعاني في حديثه عن زيارة النبي (إبراهيم) لملكة (جرار) التي كان يحكمها الملك (أبيمالك) فيقول النص التوراتي:

> وقال إبراهيم عن سارة امرأته:
> هي أختي، فأرسل أبيمالك
> ملك جرار وأخذ سارة، فأخذ
> أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا
> وإماء وأعطاها لإبراهيم
> تكوين: ٢٠ :٢، ١٤

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم...، متفرقات من ص٤١ إلي ص٤٦.

ثم أقطعه الملك أرضا في بلاده:

«هـــوذا أرضـــي قـــــــــدامـــك، اســـكـــن
فـــي مـــــــــاحــــــــسن فـــي عــــــــيـنـيـك

تكوين ٢٠ : ١٥

ثم إن أبيمالك ملك جرار الفلسطينية، والمفترض أنها علي حدود شبه جزيرة سيناء الشرقية، قال لسارة:

إنـي أعـطـيـت أخــــاك ألـفــــا مـن الـفـــــضـــــة
تكوين ٢٠ :١٦.

وهنا يطرح السؤال نفسه: **كيف حصل اليهود علي أرض فلسطين القديمة؟**

ونعود للمستر (ماير) صاحب الشهرة الواسعة لنري رأيه، فنجده يقول: «إن ماتوحيه إلينا الكلمات الواردة في سفر التكوين ـ ٢٠ :١٣، تدل علي **معاهدة شريرة** عقدها إبراهيم مع سارة، فإنه إذ كان يتحدث إلي ملك الفلسطينيين، انسابت من بين شفتيه كلمات تكشف لنا سر **سقوطه في تلك الخطيئة**، عندما دخل أرض الموعد في بداية الأمر، وعندما نزل إلي مصر تحت ضغط المجاعة، وعندما تكرر سقوطه هذه المرة، في هذه الآية نراه يقول: وحدث لما أتاهني الله من بيت أبي أني قلت لها: هو ذا معروفك الذي تصنعين إلي في كل مكان نأتي إليه، قولي عني: هو أخي!! **لقد نزل تصرفه علي منتهي الجبن، فقد ارتضي أن يعرض طهارة النسل الموعود للخطر** (لاحظ المشكلة عند ماير ليس فيما يقرأ، إنما مايشغل باله ويؤرق نفسه هو طهارة الدم العبري ونقاؤه)، كان الأمر مخلا بالشرف جدا، أن يسمح لنفسه بأن تجوز سارة محنة كهذه، وسط هذه القبائل الهمجية (لاحظ أنه يري الفلسطينيين هم الهمج؟!).. ومع مزيد الأسف **كان مستوي إبراهيم الأخلاقي في هذا الموقف أحط من مستواهم**، حتي أن أبيمالك نفسه (عندما اكتشف أن سارة زوجة إبراهيم) استطاع أن يوبخه قائلا: جلبت عليَّ وعلي مملكتي خطية عظيمة ـ تكوين ٢٠ :٩. ولاشك أن الصورة التي ارتسمت في عقل أبيمالك من جهة إبراهيم وإلهه، كانت كافية لفشل أية محاولة من جانب إبراهيم، ليكسب بها أبيمالك للإيمان اليهودي، وإنني أتخيله يقول: إني افضل أن أبقيَ كما أنا بعدما رأيته في زعيم اليهود، إنه لأمر يمزق الأحشاء حسرة وألما وحزنا، أن نري أحد الوثنيين يعير رجلا من أكبر أولاد الله بالكذب، **ومن تصرف أبيمالك نحكم بأنه أكثر نبلا من إبراهيم**».

وكعادته فإن (ماير) يأخذ في استنتاج العظات من تلك الصراحة التي تدلل عنده علي صدق الكتاب المقدس، فيقول: «إن معاملة الله لإبراهيم بإزاء هذه الخطية، تملأ

قلوبنا ثقة وشجاعة، إنه لم يتخل عنه ولم ينبذه، وعندما أشرف هو وامرأته علي حافة الخطر نتيجة خطيته، أقبل إليهما صديقهما القدير، لينجيهما من الخطر المحدق بهما، ثم إنه وبخ من أجله ملوكا، سفر الأيام الأول ١٦ :٢١، وأخبر أبيمالك أنه كان محكوما عليه بالموت، وأمره أن يلتمس الصلاة، من نفس الشخص الذي خدعه، والذي رغم كل **سقطاته كان لايزال نبيا، له قوة من الله».**[1]

وبذلك نكون قد وصلنا إلي إجابة عن السؤال المطروح آنفا، ونكون قد عرفنا ابتداء الأسلوب الذي اتبعه اليهود للحصول علي الثروة من مصر، والأرض من فلسطين، في قصة التوراة الميمونة.

والغريب أنهم بعد تمكنهم من الأرض ومن القوة، نقرأ استطراد التوراة، فتقول إنه بعد استقرار النبي في (جرار)، أتاه أبيمالك مع قائد جيشه لغرض يوضحه (ماير)، بقوله: «وطلب منه معاهدة لايلتزمان بها وحدهما، بل ويلتزم بها أيضا كل ذريتهما، قائلا: احلف بالله هاهنا أنك لاتغدر بي ولا بنسلي وذريتي، وقبل المصادقة النهائية علي هذه المعاهدة **بسط إبراهيم أمرا، مازال إلي الآن مصدر نزاع شديد في الشرق**، فإن رعاة أبيمالك كانوا قد اغتصبوا البئر التي حفرها عبيد إبراهيم (لاحظ أن ماير يعتبر استخدام الفلسطينيين لبئر في أرضهم اغتصابا؟)، أما الملك أبيمالك فقد أنكر علمه بكل ماحصل، وفي هذه المعاهدة، وضعت عبارة تتعلق بهذه البئر، لكي تكون هذه العبارة معلومة للأجيال القادمة!.. لم تكن مواد الكتابة معروفة بعد، ولذا فقد كانت السبع نعاج التي أعطاها إبراهيم لأبيمالك هي العلامة الظاهرة الدائمة، **علي أن البئر ملك لإبراهيم**، وهكذا إذا قطع العهد بجوار البئر اقترن اسمها باسم المعاهدة إلي الأبد، فقد دعيت بئر سبع أي بئر القسم، أو بئر سبع إشارة إلي السبع نعاج الهدايا، التي اقترنت بهذه المعاهدة ولزيادة تثبيت المعاهدة غرس إبراهيم شجرة إثل كي تكون بخضرتها الدائمة تذكارا للمعاهدة».[2]

ماذا يريد (ماير) أن يقول هنا؟ وماذا فهم من التوراة كمؤمن مبشر؟ وماذا ينشر في كتبه العديدة بين المؤمنين؟

إن أهل فلسطين أصبحوا يخشون ضيوفهم، أو بتعبير (ماير) يخشون غدرهم، لماذا؟ (ماير) لايوضح والتوراة لاتوضح وتمادي الخوف من الضيوف حتي وصل الأمر بالملك الفلسطيني وقائد جيشه أن يذهبا للنبي برجاء أن يقبل معاهدة سلام أصبحت «إلي الآن مصدر نزاع شديد في الشرق»، يقصد بالطبع النزاع العربي -

---

١ - الكتاب نفسه: ص١٢٣ : ١٣٤.

٢ - الكتاب نفسه: ص١٤٣.

الإسرائيلي، وسبب المعاهدة أن الرعاة الفلسطينيين استقوا من بئر حفرها العبرانيون، فخاف الملك ووزير دفاعه، حتي أنكر علمه بالأمر، وهو أمر يوضح محاولة التنصل من تبعات أنكي وأشد، غير واضحة في الرواية، ومن هنا أراد إبراهيم (أو أراد الكاتب التوراتي علي الأصح)، وضع معاهدة أبدية لكل الأجيال القادمة، ولأن الكتابة ـ في زعم ماير ـ لم تكن قد اكتشفت بعد، فكان لابد من علامات بدلا من الوثيقة المكتوبة، فأعطي إبراهيم سبع نعاج لأبيمالك، وكلمة سبع تعني أيضا القسم أو اليمين، وذلك لتمليكه البئر وما حولها، لذلك سميت البئر الشاهدة علي المعاهدة (بئر سبع) ثم إشهارا للمعاهدة وتوثيقا، غرس إبراهيم شجرة إثل دائمة الخضرة؟! حتي يعلم الأخلاف بما اتفق عليه الأسلاف، ويبدو أن المستر (ماير) وهو يصر علي أبدية العهد، ووثنية شعب فلسطين، وسوء أخلاق بني المشرق، نسي أنه كتب بيده وفي ذات الكتاب، وهو يتحدث في البداية عن هبوط النبي أرض كنعان أول مرة قادما من (أور) القول: «كان الكنعانيون حينئذ في الأرض، كان هنالك القواد العظماء، مثل ممرا وأشكول، والمدن الحصينة مثل سدوم وساليم وحبرون، وكل عناصر المدنية المزدهرة فضلا عن ذلك فإن الكنعانيين لم يكونوا قبائل مرتحلة، بل كانوا قد تأصلوا وتأسسوا في الأرض، بنوا المدن وحرثوا الأرض وسكوا العملة، وعرفوا القراءة والكتابة وأجروا الحق والعدل في القضاء، وفي كل يوم كانت تزداد قوتهم وعظمتهم، لذلك لم يكن معقولا أن يستأصلهم من الأرض نسل راع بسيط ليس له أولاد حتي ذلك الوقت»[1]، لكن (ماير) رغم ذلك عرف الحكمة التي انتصر بها الراعي البسيط، وطرد بموجبها الكنعانيين من الأرض، الا وهي الحكمة الإلهية والمشيئة الربانية، فقد قال الله لإبراهيم: «قم وامش في الأرض طولها وعرضها، تكوين ١٣: ١٧، لذلك يستنتج (ماير) الموعظة الحسنة الله يأمرنا أن نقبل منه عطاياه، لاشك أن هذا معناه أن الله أراد أن يشعر إبراهيم بأن الأرض قد أصبحت ملكا له».[2]

وبات واضحا أن العبرانيين قد تمكنوا في الأرض، وليس في بئر فقط، وهو مايوضحه قول التوراة في الأسفار التالية: **«ألست أنت إلهنا الذي طردت سكان هذه الأرض، وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلي الأبد؟ سفر أيام ثاني: ٢٠: ٧»**، أما المستر (ماير) فكان لم يزل مستمرا في أدائه التبشيري للمؤمنين وهو يقول: «كانت جرار قاعدة لملكة أبيمالك، استأصل شعبها سكان الأرض، وهم الذين أطلق عليهم العبرانيون فيما بعد، **اسم الفلسطينيين المرعب**».[3]

١ ـ الكتاب نفسه: ص٣٦

٢ ـ الكتاب نفسه: ص٥٦.

٣ ـ الكتاب نفسه: ص١٣٠.

الرحيل جنوبا

وخرج النبي إبراهيم (عليه السلام) من مصر.
وتتابع التوراة روايتها عن رحلات الخليل، فتقول:

> صعد إبرام من مصر، وامرأته، وكل ماكان له، ولوط معه، **إلي الجنوب**، وكان إبرام غنيا جدا في المواشي والفضة والذهب،وسار في رحلاته من الجنوب إلي بيت إيل، إلي المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة.
> تكوين١٣: ١ ـ٣

ولنتذكر قول التوراة: «أراميا تائها كان أبي ـ تثنية ٢٦ :٥»، فهو ما لا يجب أن ينساه اليهودي عن جده إبراهيم: **أراميا تائها** كان أبي!! والمتأمل في سيرة النبي إبراهيم التوراتية، يستشعر مدي صدق هذا الوصف وحال النبي، فمن الواضح في إصحاحات التكوين، أنه لم يستقر زمنا في مكان واحد، وكلما أناخ في موطن بني مذبحا لربه، أو بالتعبير المتواتر في التوراة «فبني هناك مذبحا، ودعا باسم الرب».

وعلي الطرف الآخر نجد كتب التراث الإسلامية تصر من جهتها، علي علاقة وطيدة للنبي إبراهيم بجزيرة العرب، وأنه جد النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) عبر إسماعيل، وأن إبراهيم وولده إسماعيل من بناة الكعبة الحجازية، البيت الإلهي الذي قدسه العرب قبل الإسلام بزمان، وهو ممايثير أمامنا الإشكال من جديد، حول الأصل الآرامي للنبي إبراهيم، بعد أن أغلقناه، حيث سنجد احتمالا آخر للآرامية في الجزيرة العربية، ورغم أن التوراة لم تأت بذكر واضح لرحلة قام بها إبراهيم لجزيرة العرب، ورغم أن التراث الإسلامي لم يحاول نسبة الأصل الإبراهيمي لجزيرة العرب إنما عده وافدا وزائرا، فإن الإشكالية تظهر فيما تمدنا به وثائق التاريخ العربي، حيث نجد تقسيما ـ لاشك لم يأت من فراغ ـ للعرب إلي: عرب عاربة بائدة، وعرب مستعربة باقية، وكان أشهر العرب البائدة أهل (أرم) حتي صار اسمهم علما علي العرب البائدة فعرفوا بالأرمان.

وقد ذكر (حمزة الأصفهاني) في تاريخه: أن العرب العاربة عشرة: عاد وثمود وطسم وجديس **وعماليق** وعبيل وأميم ووبار ورهط وجاسم وقحطان، فكانت هذه الفرق تؤرخ بسني إرم، إلي أن بادت كلها الواحدة إثر الأخري، وبقي منهم بقايا يسيرة، وكانوا يسمون الأرمان(١)، وقد فسر المسعودي سبب إطلاق التسمية (أرمان) علي مجمل العرب البائدة في قوله: «إنما سموا بذلك لأن عادا لما هلكت قيل

١ ـ حمزة الأصفهاني : تاريخ سني الملوك ، بيروت، ١٩٦١، ص١٠٥.

لبقاياها إرم، فلما هلكت ثمود قيل لبقايا إرم أرمان[1]»، وقد احتسبنا العرب البائدة من العرب العاربة، أو أن العاربة بعض البائدة استنادا لابن خلدون الذي استخدم كليهما بمعني واحد، فقال: «إن العرب العاربة شعوب كثيرة، وهم: عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعبد ضخم، وجرهم وحضرموت وحصور والسلفات، وسمي هذا الجيل العرب العاربة، بمعني الرسوخ في العروبية، أو بمعني الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها، بما كانت أول أجيالها، وقد تسمي البائدة أيضا بمعني الهالكة».[2]

والإصرار الواضح في رحيل النبي نحو الجنوب، يحيلنا معه باستمرار إلي جزيرة العرب جنوبا، فالتوراة تكرر دائما التعبير:

- ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا **نحو الجنوب** تكوين ١٢ : ١٩
- فصعد إبرام من مصر.. **إلى الجنوب** تكوين ١:١٣
- وانتقل إبرام من هناك إلي **أرض الجنوب**، وسكن بين قادش وشور، وتغرب في جرار تكوين ١:٢٠

وقد حاول الباحثون تفسير اللفظة (هـ ـ نجب) في الأصل العبري، بأنها تعني (النقب) أي صحراء النقب جنوب فلسطين (والهاء أداة التعريف العبرية)، وتأسيسا علي أن كنعان التوراتية هي فلسطين، لكن (هـ ـ نجب) تعني أيضا مع استخدام ظاهرة القلب (الجنوب)[3]، وهو ما أخذت به الترجمة العربية كما في النصوص السابق إيرادها، فترجمت (هـ ـ نجب) بمعني الجنوب، والجنوب بالنسبة للنبي إبراهيم ـ وهو خارج من مصر، وبعد أن مر بمملكة (جرار) جوار غزة حسب خرائط التوراة ـ ليس شيئا آخر سوي جزيرة العرب.

وإذا كانت التوراة قد أوضحت أن إبرام لما خرج من مصر اتجه إلي الجنوب، فإنها تستمر بسرعة خاطفة، لتقول: «وسار في رحلاته من الجنوب إلي بيت إيل، إلي المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة»، مما يشير إلي فجوة كبري وسط الرواية

١- المسعودي : التنبيه والإشراف ، الطبعة الأوربية، ص٧٨،٧٩.

٢- ابن خلدون: طبعه بولاق، ١٢٨٤ هـ، ج٢، متكررات، ص١٦، ١٩، ٧١٢، ٢٥٩

٣ - د.كمال صليبي:التوراة جاءت من جزيرة العرب ، ناقش المؤلف مسألة (هـ ـ نجب)، وانتهي إلي أن صدق ترجمتها هو (الجنوب) ، أي كما ترجمتها التوراة العربية ص٨٦:٨٩.

فهي بسرعة تقول إنه عاد من الجنوب، ولاتعلمنا لماذا خرج من مصر واتجه جنوبا من الأصل، ولأي هدف كان نزوله جنوبا، ولا الأحداث التي جرت له هناك، ولا المدة التي قضاها في هذا الجنوب كما هي عادة التوراة التي عهدناها مفصلة إلي حد الإملال، كما لو كان هذا الجزء من الرواية قد اقتطع اقتطاعا، فيعود النبي فجأة من الجنوب إلي الشمال حيث بيت إيل، المكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة.

وهنا يبدو أن إصرار الإخباريين المسلمين علي علاقة إبراهيم بجزيرة العرب، قد اكتسب مسوغاته، بل أصبح واضحا أن العلاقة يمكن أن تملأ فراغا وفجوة كبري بالرواية التوراتية، لهذا وجب أن نقف هنيهة مع ما أورده الرواة المسلمون عن زيارة الخليل لجزيرة العرب، والتي ترتبط بميلاد إسماعيل من المصرية هاجر.

وإذا كان الهبوط جنوبا يرتبط بإسماعيل، فربما لو توقفنا مع قصة التوراة عن ميلاد إسماعيل وجدنا شيئا أكثر وضوحا عن مسألة هبوطه جنوبا، تقول التوراة:

> وأما ساراي امرأة إبرام فلم تلد له، وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لإبرام: هو ذا الرب أمسكني عن الولادة،ادخل علي جاريتي لعلي أرزق منها بنين، فسمع إبرام لقول ساراي، .. فدخل علي هاجر، فحبلت، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها في عينيها، فأذلتها ساراي، فهربت من وجهها، فوجدها ملاك الرب علي عين الماء في البرية، علي العين التي في طريق شور، وقال: ياهاجر جارية ساراي.. ارجعي إلي مولاتك واخضعي تحت يديها، وقال لها ملاك الرب: تكثيرا أكثر نسلك فلايعد من الكثرة، وقال لها ملاك الرب: ها أنت حبلي فتلدين ابناوتدعين اسمه إسماعيل، لأن الرب قد سمع لمذلتك وأنه يكون إنسانا وحشيا، يده علي كل واحد ويد كل واحد عليه.
>
> تكوين١٦ :١ ـ ١٢

أما لماذا استعجل إبراهيم تحقيق الوعد بالنسل الموعود، وخشي مزيدا من الشيخوخة فدخل بهاجر، فهو مايعقب عليه (ماير) وهو يتحدث عن سارة «لماذا لايتبع زوجها عادة أهل زمانه **السخيفة**، ويتزوج تلك الجارية المصرية، التي إما أن يكونا قد اشترياها من أحد الأسواق المصرية، أو أهديت إليهما من فرعون مع باقي الهدايا التي خلعها عليهما، وضعف إيمانه في قدرة الله بأنه قادر أن يحقق وعده بطرق أخري غير الطرق الطبيعية، كل هذا دفعها لتقديم اقتراحها، لعل هذا الهاتف قد خطر علي باله في أوقات ضعفه، كان يحمل في طياته علامات الشك في قدرة القدير، لأنه كان يتضمن التعجيل في تحقيق وعد الله، وبلا تردد، ودون الرجوع إلي الله، قبل إبراهيم هذا العرض، وإذا أصبحت هاجر سيدة موقرة في المحلة، احتقرت سيدتها العاقر» ثم كعادة المستر ماير، الذي لايجد فرصة للطعن علي المصريين إلا وانتهزها فيستطرد بالقول: «نحن لانندهش من تصرفات هاجر إزاء سيدتها إذ عيرتها بوقاحة، فماذا يمكن أن ينتظر من جارية كهذه **وضيعة الأصل**».(١)

ونتابع القصة التوراتية التي تستطرد:

ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة، ظهر الرب لإبرام، وتكلم الله معه قائلا: أما أنا فهذا عهدي معك، وتكون أبا لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما، وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لاتدع اسمها ساراي، بل اسمها سارة، وأباركها وأعطيك أيضا ابنا منها، سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحق. وأقيم عهدي معه أبديا، لنسله من بعده، وأجعله أمة كبيرة، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه، وأجعله أمة كبيرة.. **ولكن عهدي أقيمه مع إسحق الذي تلده لك سارة**.. وظهر الرب له عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار، فرفع

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم..، ص٨٣، ٨٤.

عينيه ونظر، وإذا **ثلاثة رجال** واقفين لديه، فأسرع إبراهيم إلي الخيمة، وقال لسارة: أسرعي بثلاث كيلات دقيقا سميدا، اعجني واصنعي خبز ملة، ثم ركض إبراهيم إلي البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا، وأعطاه الغلام، فأسرع يعمله، ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله، ووضعها قدامهم، وإذ كان واقفا لديهم تحت الشجرة **أكلوا**، وقالوا له: أين سارة امرأتك؟ فقال: هاهي في الخيمة، فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحيواة، ويكون لسارة امرأتك ابن.. **فضحكت** سارة في باطنها قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل علي الرب شيء؟ وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحق ابنه، ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأن ابن هذه الجارية لايرث مع ابني إسحق، فبكر إبراهيم صباحا، وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر، واضعا إياهما علي كتفيها والولد، وصرفهما، فمضت وتاهت في برية بئر سبع، ولما فرغ الماء من القربة، طرحت الولد تحت إحدي الأشجار، ورفعت صوتها وبكت، فسمع الله لصوت الغلام، وفتح الله عينيها، فأبصرت بئر ماء، فذهبت وملأت القربة وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وحدث من بعد هذه الأمور، أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا إبراهيم، فقال: هأنذا، فقال: خذ ابنك **وحيدك** الذي تحبه اسحق، واذهب إلي أرض المريا، وأصعده هناك محرقة علي أحد الجبال الذي أقول لك، فلما أتيا إلي الموضع الذي قال له الله، بني هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه، ووضعه علي المذبح فوق الحطب، ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك

الرب من السماء، وقال: إبراهيم، إبراهيم، فقال: هأنذا. فقال: لاتمد يدك إلي الغلام، ولاتفعل به شيئا، لأني قد علمت الآن أنك خائف من الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني، فرفع إبراهيم عينيه ونظر، وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة، عوضا عن ابنه، فدعي إبراهيم اسم ذلك المكان يهوه يراه، حتي أنه يقال اليوم: في جبل الرب يري.
تكوين١٦، ١٧، ١٨، ٢١، ٢٢

وهنا يحاول الداعية (ماير) أن يوعز لقارئيه بأن إنجاب إسماعيل من هاجر، كان عصيانا لأمر الله، وبالطبع مايترتب علي هذا المعني من لفظ العقل الإيماني للنسل الإسماعيلي، ويضع غرضه في صيغة تساؤل يقول: «هل كان هناك ارتياح خفي لذلك التدبير، أن يدخل إبراهيم علي هاجر ليرزق منها نسلا؟ الذي حقق غاية محبوبة علي الأقل، **ولو أن الله لم يكن راضيا عنه**، هل كان يخشي أنه دعي ليقدم إسحق ذبيحة، وجد ذلك أمرا هينا، إذ يستطيع أن يستعيض عنه بإسماعيل كوارث له؟» وهكذا فالمبشر (ماير) يريد القول أن النبي علم بمسألة التضحية مسبقا، فأراد التحايل علي القدر الإلهي بإنجاب طفل من هاجر ليكون بديلا، بمعنى أن يضحي بابن الجارية، ليحيي ابن الحرة، والعجيب أن تجد مثل هذا المنطق لدى كاتب تترجم كتبه وتباع في مختلف الأنحاء، والعجب إنما في عدم اقتناعه الابتدائي بشأن إسماعيل، ثم إسقاط هذا الشعور علي تفسير يجعل النبي يخدع هذه المرة ربه نفسه، بمحاولة تنفيذ القدر والهرب منه في آن معا، فينجب إسماعيل للذبح وإسحق للوراثة، والقرار أو النية بذلك قد عقدت مسبقا قبل أن ينجب إبراهيم أيا منهما، وعليه فإن النبي جهز ابن الجارية للذبح فداء لابن الحرة، وهو منطق وفهم يمجه عرف أدني الشعوب إلي الهمجية، فمابالنا والأمر مع النبي، ثم وما بالنا وصاحب المنطق والافتراض مبشر وداعية من بين أكثر المبشرين انتشارا وأطولهم باعا؟!

وإن مثل هذه المعاني تصبح واضحة عندما يبدأ المستر (ماير) في استخلاص العبر من القصة، وأن العظة هنا أنه يجب علي المؤمن انتظار التوقيت الإلهي دون استعجال، ولاتفعل مثل إبراهيم عندما استعجل الوعد بالولد[1] فأغضب ربه، وكان محالا أن يرث الأرض الموعودة في رأي التوراة ورأي المستر (ماير)، ولد يسري في عروقه دم مصري، فنقاء الدم العبري شرط أساسي وأول، لذلك يقول المستر

١ ـ ماير: حياة إبراهيم... ص ١٣٦، ١٣٧.

(مـاير): «تسللت غـيـمة صـغـيـرة قاتمة وسـودت نفس سـارة، فـإن عـينها الحـاسـدة أبصـرت إسـمـاعـيل يمـزح، وقـد كـان إلي عهـد قـريب هـو الوارث الوحـيـد لكل المحلة، وتحت سـتـار الـهزل والمزاح هـزأ بإسـحق بطريقـة كـشـفـت عن مرارة نفسـه، التي لم يكن من السـهل أن يخبـئها، وهـذا حـرك كل غيـرة سارة الكامنة فـي نفسـهـا، التي لم تطق إخـفـاءها، لماذا وهـي السـيـدة وهـي ربة البـيت وهـي **أم الوارث الشـرعي**، تحـتـمل الإهـانات من عبد، لذلك قالت لإبراهيم بـتهكم: اطرد هـذه الجارية وابنها، لأن ابن هـذه الجارية لايرث مع ابني إسحق، علـي أنه لايزال هـناك معني أعـمق، **أن هاجر الجـارية تمثل روح العبودية**، وروح التمسك بحرفية النامـوس وطقوسه، الذي يحـاول أن يربح هذه الحياة، ترمـز هـاجر إلي عهد جبل سـيناء في بلاد العرب، **أما سارة الحـرة فإنها ترمـز إلي عهد جـبل النعـمة المجانية**، وأبناءهـا هـم ابناء الإيمـان والرعاء والمحـبة، أيهـا القـاريء العـزيز.. **ثق في المسـيح واقـبل خـلاصـه، واطرد الجـارية وابنهـا**، عش حـياة الحـرية والسـعادة كإسحق **ولاتعش حياة إسماعيل**».[1]

أما أي قـاريء متـعـقل فإنه سيلمس مـباشـرة وضـوح التوراة إلي حد السـذاجة في مـحاولة سـحب البسـاط من تحت النسـل الإسـمـاعـيلي، لتكون أرض كنعـان خالصـة لبني إسـرائيل أحفـاد إسـحق أخو إسـمـاعيل، بمبـررات مثل: غـيـرة النسـاء، وصـراع الميراث والبنوة للأمة، أم للحـرة، وخضـوع الرب التـوراتي ونبيه لمثل هـذه الترهـات.

وهـكذا لـم يـورد كـاتب هـذا الجـزء من التـوراة أية إشـارة لجـزيرة العـرب، وفي ذات الوقت تعـمـد إهـدار وضـع إسماعـيل لكونه ليس خالص العـبرية، وشابت دمـه المصـرية، لكن ما لايفوت باحثا مدققا، أن هـذه الأحداث جـميعا قد تتالت بعد خروج النبي إبراهيم من مـصـر علي طريق غـزة (طريق جرار) وأنه عندمـا خرج من مـصـر ـ حـسـب الرواية التوراتية ـ يمم نحو الجنوب، ولاجنوب في هـذه الحال إلا جزيرة العرب، هذا إضافة إلي أن إبراهيم قـد بدل اسمه من (إبرام) إلي (إبـراهـيم) وبدل اسـم زوجتـه من (سـاراي) إلي (سارة) ممايشـيـر إلي سكني إبراهيم وزوجتـه بعض الوقت بين قوم لـحنوا في اسـمـه، واسـم زوجته، فتغير نطقه في لسانهم من إبرام إلي إبراهيم، ومن ساراي إلي سـارة.

هـذا نـاهـيك عن قـصـة تـضـحـيـة الأرض وفـداء الدم، الذي اعـتـاد رب الـتـوراة طلبـه مقـابل أعطياته، وعطاؤه هـنا هـو أرض كنعـان، والـعجيب فـي أمر التـوراة إشـارتها إلي أن الابن المضـحي به كان هـو إسـحق، والتوراة بذلك تخـالف شـرعتها التي استننتها هـي في التضـحية بالبكر، ثم زيادة في تأكيد إسـحق للتضـحية، فإنها لـم تر بأسا في تكرار أن إسـحق هـو وحـيد إبرام، وهـكذا ألغت إسماعـيل من التاريخ العبـراني (ولوجه الحق

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم...، ص١٣٦، ١٣٧.

فإننا من جانبنا نري التوراة حسنا قد فعلت)، وواضح أن التوراة قد استبعدت إسماعيل، لأن دمه ليس عبرانيا خالصا، لأنه قد شابه الدم المصري، وهو كما تعلمنا الكتب الإخبارية، ذلك الدم الذي ساد العرب بعد ذلك الزمن بزمان.

وعليه فإن اليهود قد استنكفوا أن يكون المذبوح إسماعيل، لأنه سيكون أضحية مُعابة الدم، وعليه فلابد أن المذبوح كان إسحق، حتي لو خالف ذلك شرعة التضحية بالبكر، وحتي لو أنكر إسماعيل تماما وأصبح إسحق بكر إبراهيم ووحيده.

وقد ذكر القرآن الكريم قصة الذبح، لكنه لم يذكر الذبيح بالاسم، وإن كان التراث الإسلامي يعرف النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) بابن الذبيحين، والمقصود بالذبيحين: أبوه عبد الله، الذي كاد يكون ضحية للإله هبل، إيفاء لنذر جده القريب عبد المطلب، وإسماعيل جده البعيد الذي كاد يكون ضحية للإله (إيل)، والذي انتسب إليه إسماعيل باسمه (سمع ـ إيل)!

ومن الواضح أن قضية الذبيح قد شغلت المسلمين الأوائل فيما يبدو لنا من قول الثعلبي النيسابوري: «واختلف علماء السلف من عامة المسلمين، في الذي أمر إبراهيم عليه السلام بذبحه من بنيه، بعد إجماع أهل الكتاب علي أنه كان إسحق (عليه السلام)، فقال قوم: هو إسحق وذهب إليه من الصحابة: عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وعلي بن أبي طالب، ومن التابعين وأتباعهم: كعب الأحبار (ولنلحظ أن كعبا كان يهوديا، تأسلم) وقال الآخرون هو إسماعيل، وإلي هذا القول ذهب عبدالله بن عمر، وسعيد بن المسيب، والشعبي، ومجاهد وكان الشعبي يردد: «رأيت قرني الكبش منوطين بالكعبة».[1]

أما ابن كثير فيعقب بالقول: «الظاهر من القرآن... أن الذبيح هو إسماعيل، لأنه ذكر قصة الذبيح، ثم قال بعده: ﴿ وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين ﴾ ـ ١١٢ ـ الصافات. ومن جعله حالا فقد تكلف، ومستنده أن إسحق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولاسيما هاهنا قطعا لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده، وفي نسخة من المعربة: بكره إسحق، فلفظة إسحق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس الوحيد، ولا (البكر) ذاك إسماعيل».[2]

ورغم متابعة ابن كثير لكثير من التفاصيل التوراتية، فإن له كثيرا من المواقف العلمية المحمودة، ولديه في هذا الأمر تحليل جميل، وضح أولا في رؤيته للنص التوراتي، بحيث نكتفي بحذف إسحق، ليستقيم الأمر إسماعيليا، منطقا وشرعا، ثم وضح ثانيا في شرحه لقصة مولد إسماعيل، وهويكاد يطابق عبارات التوراة ذاتها،

١ – الثعلبي : عرائس المجالس...،ص٩١.

٢ – ابن كثير : البداية والنهاية... ج١ ، ص ١٤٩

لكنــك تجـد أيضـــا ابن كثـير يقف مـحللا ناقدا عـالما. ولنقرأ مـعا قـوله: «فلما حـملت هاجـر، ارتفعت نفـسـهـا وتعاظمت علـي سيـدتها، فـغارت منهـا سارة، فـشكت ذلك إلي إبراهيم، فـقال لهـا: افـعلي بها ماشـئت، فـخـافت هـاجـر فـهـربت ونزلت عند عـين هناك (دون تعيـين لمكان هـذه العيـن بالتـحديد)، فـقال لهـا ملك من الملائكة: لاتخافـي فإن الله جـاعل من هـذا الغلام الذي حـملت به خيـرا. وأمرهـا بالرجوع، وبشـرهـا أنها سـتلد ابنا وتسـمـيـه إسـمـاعـيل، ويكون وحش الـناس، يده علي الكل ويد الـكل به (لاحظ أن ابن كثير أصلح من شأن النص التوراتي القائل يد الكل عليه إلي يد الكل به)، ويملك جميع بلاد إخـوته، فـشكـر الله عـز وجـل علي ذلك، **وهـذه البـشـارة إنمـا انطبـقـت علي ولـده (مـحـمـد)**، فـإنه الذي سـادت به العرب، وملـكت جمـيع البـلاد شـرقا وغـربا»[1]، وحتي لاننسي، وحـتي نتذكـر، فـالنبي مـحـمد (صـلي الله علـيه وسـلم) الذي سـادت بـه العرب، وحقق نبوءة «لنسلك أعطي هـذه الأرض، مـن نهر مصـر إلي النهر الكبيـر نهـر الفرات»، هـو بالدم من جهة الأم مصـري، فهو حفيد (هاجر) حسبما وضـع النسابة المسلمون.

وهـكذا وجدت الرواية التـوراتية لها ترديدا في كتـب الأخبار الإسلامـية، وقد رددت هـذه الكتب قصة ترك إبراهيـم لهاجـر وولدهـا في فلاة أو برية، وحددت الآيات القرآنية موضـعـهـا بالقول: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غيـر ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ ـ ٣٧ ـ إبراهيم. ويعـقـب المسـعـودي بالقـول: فـأجـاب الله دعـوته فـآنس وحـشـتـهـم **بجرهـم والعماليق**[2]، بعد أن فـجر الله بئر زمـزم تحت خد وليدهـا وهـو يبكي عطشـا، مماجذب الطير الذي هـدي بدوره جرهـم والعمـاليـق إلي المكان، كما يؤكد المعني نفسه الثـعلبي في قـوله: «فـذهـب بهـمـا إبراهـيم حـتي قـدم مكة، وهـي إذ ذاك عـضـاة وسلم وسمـر، وبحـواليها خـارج مكة أناس يقال لـهـم **العماليق**، وموضـع البيـت يومئذ ربوة حمراء»[3] وقد ذكـر المسـعـودي أن إسـمـاعـيل قد صـاهـر القبيلـتين، وتزوج **عمـلاقة وجـرهـمية**[4] وهـو الأمـر الذي يسـتـدعينا مـرة أخـري، العـودة إلي مـاجاء في التـاريخ العربي عن العـرب العـاربة البـائدة، نستـوضـحه أمر جرهـم والعـماليق.

---

١ ـ المصدر السابق: ص١٤٤.

٢ – المسعودي: مروج الذهب، طبعة المكتبه الإسلاميه، تحقيق محمد محي الدين، بيروت، ج١ ،ص٤٦.

٣– الثعلبي: عرائس المجالس...، ص٨٢.

٤– المسعودي : مروج الذهب،ج٢ ،ص٤٧.

العمالقة

سعيا وراء خط سير رحلات النبي إبراهيم، بعد ارتحاله من مصر، والتي فيما يبدو كانت الرحلة التي ذكرها الإخباريون المسلمون إلي جزيرة العرب، وبينما التوراة لاتشير إلي أية علاقة لإبراهيم بجزيرة العرب، فقد أمسكنا بطرف خيط توراتي، يؤكد في عدة مواضع من الكتاب المقدس، أن النبي إبراهيم عندما خرج من مصر توجه نحو الجنوب، لكن دون أن تعطينا التوراة أية تحديدات أو مسميات للمواضع التي مر بها النبي أو استقر فيها في هذا الجنوب، فقط تعلمنا أن هناك قد دب الخلاف داخل أسرة النبي الصغيرة، مما دعاه إلي صرف هاجر ووليدها عن بيته، وبعد عدة نقلات، نعلم أن هذا الوليد (إسماعيل) قد أصبح شابا، يمرح وراء الصيد في برية دعتها التوراة (برية فاران)، هذا ويذهب الإخباريون المسلمون إلي أن هاجر وولدها، قد سارا يضربان في برية قاحلة، أصابتهما بعطش قاتل، وبينما الطفل النبي يبكي ضرب جبريل الأرض بقدمه ففجرها الله عينا، تلك التي أصبحت بئرا مقدسة لدي عرب الجاهلية والإسلام! وإن كانت التوراة تشير إلي الأمر بصيغة أخري فتقول: «وفتح الله عينها فأبصرت بئر ماء»، وقد لايكون ثمة خلاف بين الروايتين، وربما كانت الرواية الإسلامية تسير علي ضرب قديم من التوراة، مع أخذنا بالحسبان أن العين في العبرية كماهي في العربية تعني نبع الماء، وحاسة البصر، وربما كان الأصل القديم يقول: إن الله قد أنبع لهاجر عين الماء فأبصرتها، كتعبير أقرب للمفهوم التراثي عن التعبير «وفتح الله عينها فأبصرت .. الخ».

وإذا كان هذا المكان في التوراة هو (برية فاران) فهو في القرآن الكريم (واد) وأن هذا الوادي (غير ذي زرع)، وأن في هذا الوادي كان يقوم بيت مقدس للعبادة، وأن صفة القدسية نعلمها من الاصطلاح الذي أطلقته عليه الآيات، فهو بيت (محرم) أو بنص الآيات: ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ ـ ٣٧ ـ إبراهيم.

وهنا لابد أن نربط هذه الآية بآية أخري تحدد لنا اسم الموضع بهذا الوادي، فتقول: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدي للعالمين﴾ ـ ٩٦ آل عمران. وسبق وعرفنا من الإخباريين المسلمين أنه في الجوار كانت هناك قبيلتان من العرب العاربة، أو من بقايا العاربة البائدة هما (جرهم) و(عماليق)، مع إشارات تؤكد أنه لم يكن هناك بيت قائم بالفعل في المنطقة. فالثعلبي يقول: إن أرض مكة كانت تنبت أنواعا من الشجر «سلم، سمر، عضاة» **وكان موضع البيت ربوة حمراء،**[1] هذا بينما يؤكد ابن هشام في السيرة أن الكعبة لم تكن موجودة حتي

---

١ - الثعلبي: عرائس المجالس ،ص٨٢.

وقت متأخر من عمر إسماعيل، بدليل قوله: «**وكان الحجر قبل بناء البيت زربا لغنم إسماعيل**»،[1] بل إن القرآن الكريم أكد هذا المعني بدوره، فقال: إنه بعد أن شب إسماعيل وافاه أبوه إبراهيم، وأنهما أقاما قواعد البيت، وذلك في الآيات: ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ - ١٢٧ - البقرة.

وهنا تبدو عدة مسائل بحاجة إلي الإيضاح، فالنبي يهبط جنوبا إلي جزيرة العرب، ويترك ولده إسماعيل وأمه هاجر عند (بيت محرم)، ومع ذلك فهناك آيات أخري نفهم منها أن البيت المحرم لم يكن قائما بالفعل، إنما أقامه النبي إبراهيم وابنه اسماعيل، ولذلك رواية طويلة معروفة في كتب التراث، ثم نفهم من آية ثالثة، أن هذا البيت يعد أقدم بيوت العبادة، وأنه كان قائما فعلا في موضع أسمته الآيات (بكة) بينما نعلم أن ذلك البيت هو المقام بموضع (مكة) من أرض الحجاز، فلماذا الاختلاف في التسمية هنا إذا كان المقصود هو ذات نفس البيت، وفي ذات نفس المكان، والمفسرون يذهبون إلي أنه مجرد اختلاف لهجوي، لكن إذا كان الموضع هو ذات الموضع والسكان هم ذاتهم، فلماذا الاختلاف اللهجوي؟ وتبقي المسألة الأكثر إثارة للاستفهام، وهو أنه لايمكن فهم كيف كان البيت قائما بالفعل، عندما ترك النبي ولده إلي جواره، وكيف، قاما بعد ذلك ببنائه؟ ويذهب المفسرون هنا إلي القول أنه كان قائما من زمن بعيد لكنه تهدم حتي جاء النبيان فأقاما قواعده، ممايشير إلي أن قواعده كانت موجودة من الأصل، لكن كيف يمكن قبول ذلك في ضوء الآية ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ ممايشير بوضوح إلي بيت قائم بالفعل؟

حقيقة، الأمر لم يزل بحاجة إلي توضيح وإضاءة.

ثم هناك مسألة جرهم والعماليق أنسباء النبي إسماعيل، وتذكر بعض الروايات أنهم شاركوا في بناء البيت.. وهم من العرب العاربة.

ربما كانت إجابة التساؤلات في متابعة العرب العاربة، فلنمسك بطرف هذا الخيط ونتتبعه.

قال حمزة الأصفهاني: إن العرب العاربة هي: عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وعماليق، وعبيل، وأميم، ووبار، ورهط، وجاسم وقحطان، بادت ومن بقي منهم أطلق عليهم اسم الأرمان وقال ابن خلدون: إنهم عاد، وثمود، وطسم، وجديس، ثم لايذكر عماليق، إنما يذكر (عبد ضخم وجرهم) إضافة إلي عبيل، وأميم، وحصور، وحضرموت، والسلفات.

---

١ - ابن هشام:(في الروض الأنف للسهيلي) ج١ ،ص١٣٥

ومع بعض الجهد، يمكن العثور علي إشارات إلي أسماء قبائل، وإلي مواضع في جزيرة العرب، تشير بوضوح إلي تلك البائدات، ممايعني أن الأمر ليس برمته من أساطير الأولين، فهذه (العبيلة) شرقي الجزيرة قرب الإمارات العربية المتحدة الحالية، تشير إلي (عبيل) وإلي الشرق منها علي الساحل تجد (حصور) ـ بعد القلب ـ في ميناء (صوحار) بعمان، وهذه (ثمود) في أقصي الجنوب، في القسم الشمالي من اليمن الجنوبي باسمها البائد لم تتغير، وتلك (بئر طميس) قرب ثمود، تشير إشارة واضحة ـ بعد القلب إلي (طسم)، أما (وبار) فتتناثر باسم (الوبرة)، و(الوفرة) في مناطق متعددة من الجزيرة، كذلك (أميم) لم تزل علما علي قبائل (أميم) الحالية، و (حضرموت) لم تزل شاهدا صامدا في الجنوب، أما (عاد) فأمرها آت في بحثنا، وسنوضحه تفصيلا، لكن (السلفات) فأعتقد ـ وربما أخطأت وربما أصبت ـ إنها بالقلب (فلسات)، وهي بهذا النطق تصبح حفرية لغوية عظيمة الأهمية بقيت علاماتها في قبيلة (طي) التي كانت تعبد ربها علي جبل (أجا) باسم (الفلس). وبنسبة الفلس إلي طي، فإنه سيكون (فلس طي) أو (فلسطي)، ولا أظنني أبعد في هذا التخريج كثيرا، عن حسبان هؤلاء هم (الفلستي) أو (الفلسطي) القدماء، أصلا لمن عرفناهم بعد ذلك هجرة وصلت إلي ساحل البحر المتوسط الشرقي باسم (الفلستيين) أو (الفلسطينيين) ليعطوا أرض كنعان اسم فلسطين. ومن الجدير بالذكر أن الباحثين يزعمون أن الفلستيين أقوام جاءت كنعان قادمة من بحر إيجة، أو من جزيرة كريت[1]، وهو أمر غير مقطوع بشأنه ويشوبه شك كبير، ومن الأوفق اللجوء إلي تخريجنا هذا ـ ولو مؤقتا ـ حتي يتم القطع في الأمر، بحسبانه يتسق مع خط سير الهجرات التي وفدت إلي شرقي المتوسط، وهي في زعم ذات الباحثين قادمة من جزيرة العرب، عدا الفلستيين، لانعلم لماذا؟ اللهم إلا غرض مشبوه هو استبعاد الفلسطينيين من العناصر القاطنة بالمنطقة من الساميين، وحسبانهم غرباء علي فلسطين لتسويغ اعتبار فلسطين سامية من الفرع العبراني.

ولم يبق لدينا سوي (العماليق) الذين ذكرهم حمزة الأصفهاني، ولم يذكرهم ابن خلدون، وذكر بدلا منهم (عبد ضخم وجرهم)، وهو ما لم يورده الأصفهاني مما يشير إلي خلاف أتصوره ـ في بحثي ـ بداية الاتفاق وبداية الإجابة عما طرحناه من تساؤلات.

والعملاق كما نعلم، هو ضخم البناء، وتحكي لنا كتب التراث روايات كثيرة،

---

١ ـ جاردنر: مصر الفراعنة...، ص١٥٦ : ١٥٨.

تطابق هذا المعني وتشير إليه، وكيف كان الواحد منهم يحمل الصخرة فيرميها علي الجيش فيسحقه، ويفسر (النيسابورى) الآيات القرآنية حول عاد: ﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون. وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون. وإذا بطشتم بطشتم جبارين﴾ ١٢٨: ١٣٠ الشعراء بقوله:

«وذلك أن هؤلاء القوم، كانوا في هيئات النخل طولا، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر»[1] بينما يفسر الثعلبي الآيات: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾ ـ ٦٩ ـ الأعراف، بقوله: «أي عظما وطولا وقوة وشدة وقال أبو حمزة اليماني: كان طول الواحد منهم سبعين ذراعا، وقال ابن عباس: ثمانين ذراعا، وقال: كان أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستين ذراعا، وقال وهب: كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة، وكانت عين الرجل منهم تفرخ فيها السباع، وكذلك مناخرهم»[2]، ومثل هذه التفاسير ـ كما هو واضح ـ تدخل في عداد المبالغات والتهويلات التي لحقت بهؤلاء القوم، لأسباب مجهولة، علي الباحث المدقق أن يحاول كشف اللثام عنها.

وبالعودة إلي منطق البدوي، الذي عاش حياة متفرقة في قبائل متنازعة متصارعة، ولم تجتمع كلمته في وحدة سياسية واحدة إلا نادرا، وحين حدوثها كانت تحدث بين أهل المدر، وليس بين أهل الوبر، مماجعل هذا البدوي عاجزا عن القيام بالأعمال الكبري، والمشاريع الضخمة التي تحتاج إلي تكاتف قوي المجتمع الموحد، المنتظم في سلك المركزية لوحدة سياسية كبري، وفي وقت كان جيرانه الذين انتظموا في وحدات إدارية مركزية كبري قد تمكنوا من تنظيم العمل وتوجيهه إلي إقامة المشاريع الضخمة.

ومن هنا كان هذا البدوي المرتحل يري في الأعمال المعمارية الهائلة، التي أقامها جيرانه في مصر والعراق، أعمالا إعجازية وعجيبة، وبقي فهمه لها في المأثور العربي عن عجائب الدنيا السبع، ولم يكن ـ وهو في تفرقه القبلي ـ يتصور أن بإمكان البشر العاديين، إقامة شيء كالأهرام أو معابد الكرنك خاصة أن هذه المعابد ذات أبهاء ضخمة وتقوم علي أعمدة شاهقة، وأسقف بالغة العلو، ممادفعه إلي تصور أنها قد أنشئت أصلا لتناسب حجم وقامات بناتها، وهم بذلك ذوو قامات هائلة وأجسام عظيمة الجرم، وأن هذه المعماريات كي تقام فإنها احتاجت ـ لاريب ـ إلي قوة

---

١ – المسعودي : مروج الذهب ، طبعة المكتبة الإسلامية، ج٢، ص٤٠.

٢ – الثعلبي: عرائس المجالس ... ص٦١، ٦٢

عضلية، لاتتيسر إلا لهؤلاء الضخام الطوال، ومن ثم فلاشك أنهم كانوا (عمالقة)!

لكن حديث التراث العربي، هو عن عمالقة عاشوا في جزيرة العرب ثم بادوا، وهو مايخالف تفسيرنا، وهنا نتذكر أن العمالقة عند الأصفهاني تستبدل عند ابن خلدون، بالاسم: عبد ضخم، وهو مايشير إلي المعني ذاته: العملقة، ممايدفعنا إلي الظن أن ابن خلدون قد قصد بعبد ضخم ذات مقصد الأصفهاني بالعمالقة، وهنا ننقل القاريء خطوة أخري علي سبيلنا فنذكره أن الأصفهاني قد قرن بالعمالقة الاسم (جرهم) أبو الجراهمة، ثم نلقي بأسطع الأضواء علي الكشف المأمول، والمتمثل في اسم مصر القديمة بلسانها (مجر)[1] الذي جاء منه بمرور الزمان الاسم (مصر).

وكثيرا ماحدثت في وادي النيل حدثان كبري، تليق بكبر المجتمع وتتفق مع حجمه وأشكاله الاجتماعية، لعل أهمها الصراع الذي نشأ بين كهان مدينة (منف) المقدسة وكهان مدينة (عين شمس)، وانتهت بانتصار كهنة عين شمس واستيلاء كهنتها علي عرش البلاد، مع نهاية الأسرة الرابعة الحاكمة في الدولة القديمة، والذي تبعه بالضرورة فرار كهنة منف وأتباع الدين المنفي، في هجرة كبري، ربما اتجهت إلي جزيرة العرب، إضافة إلي مايعلمه التاريخ عن هجرات مثيلة، اتجهت إلي شرقي المتوسط وعبر بعضها البحر إلي ميسينا وكريت، وربما لم تكن هجرات بالمعني الدقيق للكلمة، إنما نوع من الهرب الكبير، وبالنسبة لجزيرة العرب، فقد وجدنا من القرائن مايشير إلي وجود مصري واضح فيها، أيا كان سببه، سواء كان نوعا من الهجرة أو نوعا من الجاليات الكبيرة، أو الحاميات المتقدمة، أو وجود بدأ عسكريا وانتهي باستقرار دائم، والأمر متروك للمهتمين من الباحثين، في ضوء ما سنقدمه من شواهد يشير إلي أن جرهم إنما كانت تشير إلي أهل (مجر)، مع تذكرنا أن الأصفهاني قد قرن جرهم بالعمالقة، وهو مايدعونا إلي افتراض أن الجراهمة هم ذاتهم العمالقة.

وأول شواهدنا وأهمها لدعم فرضنا هذا، الذي نسوقه علي مهل وحذر، هو ماوجدناه عند المؤرخ القس (أورسيوس ٣٧٥م)، حيث يقول عن النبي إبراهيم:

---

١ - يذهب كثير من المصرولوجيين إلي أن الاسمين:(مصر) و(القبط ومنهاEGYPT)، يعود إلي اصل مصري قديم قح، فالاسم مصر من الأصل الهيروغليفي (مجر)، وكان في الأصل يعني: السور أو الحصن العظيم، انظر في ذلك: د. عبد الحميد زايد: أسماء مصر، مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت، عدد٢ ، ١٩٧٢ ص٣٣. هذا بينما يذهب آخرون إلي أن (مجر) هو في الأصل لفظ سامي درج بعد ذلك، ويشير إلي مصر بمعني الحد الكبير.

«وولد له إسماعيل من جاريته **هاجر العملاقة**، وتزوج إسماعيل امرأة **من العماليق** فولدت له اثني عشر ولدا».[1]

والمفترض، أن (أورسيوس) رجل دين ذو شأن غير هين، ويعلم تماما صحيح مابين يديه من أي الكتاب المقدس، ولايفوتنا أنه قد كلف بكتابة هذا التاريخ بتكليف من أخطر أساطين رجال الدين في زمانه (القديس أوغسطين)، وما كان ممكنا أن يتم هذا التكليف وفي ذلك العصر بالتحديد، إلا بعد تمحيص تام في شخص المؤرخ المنوط به هذه المسئولية الكبري، وبعد ثبوت الثقة في علمه وفقهه، وتبحره في التوراة، هذا بينما التوراة علي الطرف الآخر تؤكد بوضوح: أن هاجر كانت جارية **مصرية**، كما تنص في حديثها عن إسماعيل: «أنه سكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من **أرض مصر** ـ تكوين: ٢١ ـ٢٢».

إذن (أورسيوس) يؤكد أن هاجر أم النبي إسماعيل (عملاقة) وأن إسماعيل بدوره قد تزوج من (عملاقة)، والتوراة تؤكد أن هاجر **مصرية** وزوجة إسماعيل **مصرية**، وهنا نردف فورا ماجاء عند المسعودي في قوله: «تفرق العماليق بعد أن أقحط الشحر واليمن، ويمم بعضهم نحو تهامة، وأشرفوا علي الوادي الذي تقيم فيه هاجر وولدها قرب الماء، فتزوج إسماعيل منهم، ثم تركها وتزوج جرهمية».[2]

ولو دققنا النظر في حديث المسعودي، عن زواج إسماعيل من عملاقة ثم من جرهمية، سنجده يتضارب مع ماجاء في التراث الإسلامي عن قصة بناء الكعبة، وأنها بنيت خمس مرات منذ بدء تاريخها،[3] وأن من بناتها العمالقة والجراهمة، وكلاهما أنسباء إسماعيل[4]، ممايعني أن العمالقة والجراهمة كانا متعاصرين، وهكذا لايكون مستساغا أن تنهدم الكعبة وتبني مرتين في جيل واحد، ولايبقي منطقيا سوي افتراض أن يكون الجراهمة هم ذات العمالقة، وأنهم عاصروا النبيين إبراهيم وولده إسماعيل، وشاركوهما بناء البيت الإلهي، وممايعضد هذا المنطق، مايبدو لنا التباسا حدث عند (ابن سيد الناس) في تاريخه، فقال: إن البيت قد بني أيام جرهم **مرة أو مرتين**، وترك الأمر مفتوحا للاحتمال والترجيح[5] أما صاحب السيرة الحلبية الذي وقع في ذات الحيرة، فقد أجاز لنفسه تأكيد أمر واضح هو «أن العمالقة بنته ولابد».[6]

---

١ ـ أورسيوس: تاريخ العالم... ص٩٢.

٢ – المسعودي : مروج الذهب، طبعة المكتبة الإسلامية، ج٢ ،ص٤٦, ٤٧.

٣ – ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ط٢, ١٩٨٠، ج١، ص٦٦

٤ – السيرة الحلبية ج١ ،ص٩٦.

٥ – ابن سيد الناس : ج١ ،ص٦٧.

٦ – السيرة الحلبية : ج١، ص٩٦

وإذا كان (أورسيوس) يقول دون أن يخشي اعتراضا: إن هاجر كانت عملاقة، وأن ولدها إسماعيل قد تزوج عملاقة، وقام المسعودي يجمع من الموروث القديم، مايؤكد أن إسماعيل قد تزوج عملاقة وجرهمية، إضافة إلي ماوجدناه عند ابن هشام وهو يجمع من المأثورات العربية السالفة مايوطيء به للسيرة النبوية فيقول: «إن إسماعيل نبي مرسل أرسله الله إلي **أخواله من جرهم، وإلي العماليق**[1]، ثم إصراره بعد ذلك علي أن أخوال إسماعيل من الجراهمة، في قوله: «وبنو إسماعيل أخوالهم من جرهم»[2]، وقوله في موضع آخر: «ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام لاينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لخئولتهم وقرابتهم»[3] فإن الأمر كله يفضي إلي أن أم إسماعيل (هاجر) المعروف أنها مصرية الأصل، هي أيضا (جرهمية)، وهي عند (أورسيوس) عملاقة، ويصادق جميعه علي صدق فرضنا أن كلمة (جرهم) مأخوذة من الأصل (مجر) الذي يعني (مصر)، ولايكون هناك مندوحة من التسليم - في ضوء ماجمعناه من شواهد - بأن الجراهمة هم العمالقة هم المصريون، وأن العملقة كانت من صفة المصريين أو الجراهمة، لتفسر عظمتهم في الإنشاء والإعمار، وعليه تكون هاجر أم إسماعيل، وكذلك زوجته، من العمالقة الجراهمة المصريين، ولعل اسم (هاجر) يشير إلي معني المصرية، فالهاء أداة التعريف في العربية الشمالية وفي العبرية، و(جر) أو (مجر) هي مصر، وربما أسقط حرف الميم بالتخفيف مع مرور الزمن. ومن هنا نفهم أيضا لماذا لم يعترض أحد علي (أورسيوس) من أهل زمانه وأولهم أستاذه (أوغسطين)، فلاريب أن الأمر حينذاك لم يكن مثيرا للاعتراض، وهو بالطبع لن يكون كذلك، إلا إذا كان لدي أهل زمانه مأثور هو من المسلمات والمعروف، ومن نوافل المعلوم الذي اكتسب قدسية التقادم، يشير إلي ماوصلنا إليه، وهو أن **العمالقة مصريون**، ومن هنا أيضا نفهم لماذا ظل العبريون طوال حوالي ألف عام من تاريخهم يعبدون ربهم في خيمة، أو جعلوا من هذه الخيمة بيتا له ومسكنا أسموها (خيمة الاجتماع)، ولم يكن ذلك إلا لأنهم أهل بداوة وتنقل، بينما تمكن فرعهم الإسماعيلي المتصل بالجراهمة العمالقة أن يقيم للرب بناء معماريا بدلا من الخيمة البدوية في زمن مبكر، «ومن يعرف البناء في مجتمع خيموي؟».

---

١ - في شرح السهيلي : الروض الأنف ،ج١ ،ص ١٧

٢ - نفسه : ص١٥٣

٣ - نفسه : ص١٣٥

وقد سبق لنا في مقال نقدي لمنهج (د. سيد كريم) ومعالجته لموضوع بعنوان (قدماء المصريين وبناء الكعبة)[1]، أن أشرنا إلي أنه رغم انتقادنا لمنهجه بقسوة، فنحن نتفق معه في نقطة هامة حول القول بهجرة مصرية من (منف) إلي جزيرة العرب، لذلك وجب التنويه أن (د. كريم) أفاد أن الاسم (جرهم) يعني (مهاجري مصر)، وذلك ممايلتقي مع مذهبنا، وكنا نتمني أن يكون المصدر الذي اعتمده بين أيدينا، لنرفقه بالهوامش زيادة في الفائدة لكنه لم يشر إلي مصادره، وقد أفاد أيضا أن الاسم (مناف) في جزيرة العرب، مأخوذ من كلمة (منف) المصرية، وهو قول يمكننا أن نكسبه صلابة وقوة إذا ربطناه بمذهبنا هنا، لأن المناف لغة من القوة والنيف، أي الزيادة في الحجم، فالكلمة بذلك تشير إلي معني العملقة، كما تلتقي (عبد مناف) مع تعبير ابن خلدون (عبد ضخم)!

أما أكثر المدهشات في أمر (المسعودي) عند الباحثين، وربما اعتبروها من سقطاته وغضوا الطرف عنها، بينما هي لدينا أكثر مقولاته اتساقا مع طبيعة الأمور، وتحتاج إمعان النظر فيها، هي قوله في إشارة خاطفة: «**وقيل إن هؤلاء العمالقة بعض فراعنة مصر**»[2]، فما أقوي ذاكرة الأجيال التي حفظت تلك الحقيقة عبر سنين طويلة، وما أبلغه من دليل علي طرحنا، وشكرا للمسعودي! لكن المشكلة ـ الظاهرية ـ أمامنا الآن يثيرها المسعودي نفسه، وذلك في قوله: إن العمالقة قد جاءوا الحجاز مهاجرين من اليمن بعد أن أقحط، وحطوا رحلهم إلي جوار هاجر وولدها وصاهروهما، وهذا يعني أن العمالقة أو الجراهمة من اليمن وليسوا من مصر، خاصة مع قول آخر له عن إسماعيل، وهو أن الله قد «أرسله إلي العماليق من قبائل اليمن» وهو ممايضع أمام أطروحتنا اعتراضا ابتدائيا، هو لوجه الحق مؤيد قوي لنا، كما سنري.

والمسعودي لايقف منفردا في القول: إن العمالقة قدموا إلي الحجاز من اليمن، بل هو واحد في لفيف من الإخباريين المسلمين، الذين يجمعون علي حسبان أن كافة الهجرات سواء إلي الحجاز، أو إلي العربية الشمالية، أو إلي الشام، أو إلي الرافدين، قدمت أصلا من بلاد اليمن، وهو مايحيلنا مرة أخري إلي إصرار التوراة وتأكيدها المستمر «وارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب». أما تراثنا، رغم ماحوي من

---

١ – د. سيد كريم : قدماء المصريين وبناء الكعبة ، مجلة الهلال ، عدد فبراير ١٩٨٢ انظر تعقيبنا علي موضوعه بعنوان : هل بني الفراعنة الكعبة ؟ تصحيح مغالطات ، مجلة القاهرة، عدد ٨١، مارس ١٩٨٨، انظر ايضاً كتابنا : رب الزمان ، مدبولي الصغير ، القاهرة ، ١٩٩٥.

٢ – المسعودي : مروج الذهب ... طبعة المكتبة الإسلامية ، ج٢ ،ص١٣٥

تهويلات ومبالغات، لايني يفاجئنا بثرائه، وحفظه لذاكرة الأجيال، فيقول الثعلبي: «ثم نبأ الله إسماعيل **فبعثه إلي العماليق وقبائل اليمن**».[1]

وقد علمنا أن الترجمة العربية للتوراة، تترجم اتجاه النبي المستمر نحو (هـ ـ نجب) بأنه ارتحال دائم نحو الجنوب، وهنا تضيىء اللغة المنطقة أمامنا، فلكلمة الجنوب مرادف آخر في العبرية هو (يمن)[2]، أما اصطلاحات اللغة العربية الجغرافية، فتشير إلي الشمال بكلمة (الجدي) وإلي الجنوب بذات الكلمة العبرية (يمن)[3]، فالكلمة (يمن) تعني الجنوب، والجنوب كان هدف النبي المرتحل جنوبا أو يمنا، إلي (بلاد اليمن)، كما أن (يمن) ظلت دلالة العقيدة الصادقة، فمن كلمة (اليمن) تأتي كلمة (اليمين) و(أهل اليمين) والقسم الصادق (يمين) وفي الروض الأنف يضع السهيلي تخريجا يقول: إن اليمن سميت يمنا لوقوعها عن يمين الكعبة[4]، واللغة تنسب بذلك اليمين إلي اليمن، لأن أهل اليمين هم أهل الإيمان، والكلمة (إيمان) والكلمة (يمن) من جذر واحد، وكذلك (المؤمنين) مشتقة من الجذر ذاته.

ولامفر هنا من تذكر أشهر الآلهة المصرية القديمة (آمين) أو (آمون) وكان إله الدولة الرسمي، وظل معبودا بهذا الاسم مايزيد علي ألفي عام، ويعني اسمه في المصرية القديمة (الواحد الخفي)[5] عن الإدراك، ثم نتذكر أن الألف أو الهمزة تقلب ياء في الساميات، فيصبح (آمين) هو (يمين)، ويصبح (آمن) هو (يمن). أما المذهل حقا فهو، مانجده في كتب التراث مصدقا لمذهبنا، فتقول السيرة الحلبية في حديثها عن مأثور قديم، يقول: إن أول من سكن اليمن، من يدعي يعرب بن قحطان، «ويعرب هذا قيل له **أيمن**، وسمي اليمن يمنا بنزوله فيه»[6]، وكان من السهل أن تقلب (آمن) أو (آمين) إلي (أيمن)، ولاتختم الصلوات في أي ديانة شرقية حتي اليوم، دون التأمين عليها باسم الواحد الخفي (آمين).

حقيقة إن كل ذلك هو مؤشرات إلي التصور الأوفق، لاتجاه العمالقة الجراهمة بني منف، سواء في هجرة، أو في شكل حاميات عسكرية متقدمة، وهو بالطبع لن يكون إلي بلقع الحجاز الأجرد، وهم من اعتادوا الخصب في بلادهم، إضافة للمزية

---

١ – الثعلبي: عرائس المجالس ...، ص١٠٠

٢ – د.كمال صليبي : التوراة جاءت من جزيرة العرب ...، ص١١٣

٣ – المسعودي : مروج الذهب ...، طبعة المكتبة الإسلامية ، ج١،ص٢٠٠.

٤ – السهيلي : الروض الأنف ...، ج١،ص١٩.

٥ – اليزابيث رايفشتال : طيبة في عهد أمنحوتب الثالث، ترجمة إبراهيم زرق مكتبة لبنان بيروت، ١٩٦٧، ص٣٧.

٦ – السيرة الحلبية : ج١،ص٢٩.

الاستراتيجية لبلاد اليمن، وتحكمها في عنق البحر الأحمر عند المندب، واتصالها الجنوبي بامتداد مصر في أثيوبيا والصومال ومن هنا نتصور أن تواجدهم كان في المناطق الخصبة، وأخصب بلاد العرب تلك التي خصتها الكتابات الكلاسيكية بوصف (بلاد العرب السعيدة)، وما انتشر فيها من علوم الري وفنونه، والسيطرة علي المياه ومجاريها، وهو ماتعبر عنه بصدق وضاء كلمة (يمن) التي تعني الجنوب وتعني بلاد اليمن، وبضم الياء تصبح (يُمن) واليمن لغة هو السعد.

وعند انتهائنا من هذا الجزء من الدراسة، صادفنا مايصادق علي اجتهادنا، في كون الجراهمة هم العمالقة هم المصريون، حيث وجدنا السهيلي يشير إلي عقائد بعض أهل الجاهلية فيقول: «وكان من خرافاتها في الجاهلية، أن جرهما ابن لملك أهبط من السماء لذنب أصابه فغضب عليه من أجله، كما أهبط هاروت وماروت، ثم ألقيت فيه الشهوة، فتزوج امرأة فولدت له جرهما».[1]

والمقصود هنا هو أن (جرهم) من نسل ملاك وإنسية، والعجيب أن ذلك يلتقي تماما مع رواية جاءت في التوراة، تقول: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون علي الأرض، وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضا **إذ دخل بنو الله علي بنات الناس وولدن لهم أولادا، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم** - تكوين ٦ :١-٤».

وبالربط بين الروايتين نفهم أن الجراهمة هم نسل عجيب لآباء سماويين ونساء أرضيات، أو ثمرة الزواج بين أبناء الله وبنات الأرض، وأن هذا النسل عرف بالطغيان والجبروت، وأن هؤلاء الجبابرة كانوا «منذ الدهر ذوي اسم» أي معروفين منذ بداية الأزمنة.

ولانري في تلك الروايات سوي تصديق لتفسيرنا، فقد ذهب العقل حينذاك إلي احتساب هؤلاء جبابرة أو عمالقة، مع ملاحظة تشابه التعبير التوراتي (جبابرة) مع التعبير العربي (جراهمة)، إضافة إلي إشارة مهمة وخطيرة، فالمعلوم أن المصريين القدماء، قد اعتقدوا أن الملك هو ابن الإله وممثله علي الأرض، وكانت هذه صفة متواترة، معلومة عنهم[2]، ومن ثم كان ممكنا أن يتصور أهل الجزيرة، ضيوفهم في أبهتهم وعبادتهم نماذج إلهية، عضدها الاعتقاد المصري، وذلك يفسر لنا أيضا

---

١ - السهيلي: الروض الأنف...، ج١، ص١٣٨، ١٣٩.

٢ - انظر لمزيد من التفصيل كتابنا : أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة - دار فكر القاهرة، ١٩٨٨.

لماذا اعتبر جراهمة الجزيرة، أو جبابرتها أو عمالقتها من نسل مصري؟ ولماذا احتسبوا عمالقة؟ ولايفوتنا الاعتقاد العربي في كون جرهم أهبط تلك البلاد لذنب أصابه، ممايشير إلي لجوء عظماء للمنطقة هربا من مطاردة في الأرض الأم، إضافة إلي قول التوراة عن أن الناس بدأوا يكثرون في الأرض، ممايشير إلي توافد أعداد غفيرة إلي المنطقة، وأن هذا التوافد المهاجر كان لأناس يعرفهم الجميع ويعلمهم الدهر، فهم «الذين منذ الدهر ذوو اسم».

فراعنة اليمن

وإذا كنا قد اتفقنا مبدئيا، ولو بصفة مؤقتة أن النبي إبراهيم عندما غادر مصر، ترافقه زوجته سارة، وهاجر المصرية، وابن أخيه لوط، قد اتجهوا جنوبا إلي جزيرة العرب، فأول ماتصف التوراة وجهتهم تقول: إنها إلي أرض «كجنة الرب كأرض مصر ـ تكوين :١٣»، والتعبير يحمل معني التشابه البيئي، وربما تشابه المسمي أيضا، وهو مالا يتطابق مع أرض الحجاز، الوادي غير ذي زرع.

وهنا نقف مع الحافظ ابن كثير لنجده يتابع النص الظاهري للتوراة، فيقول: «ثم إن الخليل عليه السلام، رجع من بلاد مصر إلي أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام ومال جزيل»[1]، ويلحظ ابن كثير أنه قد أورد في حديثه كلمة، ربما كانت غريبة علي مسامع قارئه هي (التيمن)، فيستدرك موضحا: «التيمن تعني أرض بيت المقدس»[2]! وهو بذلك إنما يتابع التوراة، ويعني ببيت المقدس (بيت إيل الفلسطيني)، ولكن لأن للحقيقة أقدامها الثابتة، فقد نفذت في رواية ابن كثير، تلك الحقيقة التي ـ لاشك ـ تواترت محفوظة في ذاكرة الأجيال، حتي وصلته شفاهة أو مدونة، أقصد بتلك الحقيقة اسم تلك الأرض التي توجه إليها النبي عندما غادر مصر، التي ذكرها ابن كثير باسم (التيمن)، والمدقق لايجد التيمن في فلسطين، وإنما يجدها ترجمة للمعني الوارد في التوراة أن النبي عندما خرج من مصر (توجه جنوبا)، فالمسعودي وهو يلبس ثوب أستاذ الجغرافيا، ويشرح لنا تضاريس الأرض وحدود البلدان والبحار، نجده يستخدم مصطلحين للدلالة علي الجنوب، الأول هو (يمن) أما الثاني فهو (تيمن)[3]، ثم نلجأ للمتخصصين في أركيولوجيا اليمن نستقرئهم عسانا نجد المبتغي، فنجد (فرتزهومل) يحدثنا عن الموضع (يمنت) علي الشاطيء الغني بالبخور جنوب حضرموت القديم[4]، و(يمنت) بالقلب هي «تيمن»!!

كما لايغيب عن الفطن أن الكلمة (تيمن) والكلمة (يمن) تشتركان في جذر واحد في حال كون (تيمن) اسما، أما في حالة حسبانها فعلا (مع تشكيل حركات حروفهما بالفتح)، فستكون فعلا ماضيا يعني اتجه إلي اليمن، ارتحل جنوبا، وتيمن بالشيء سعد به واستبشر وبلاد اليمن هي بلاد العرب السعيدة، أو بلاد السعد.

ثم تقول التوراة: «وانتقل إبراهيم من هناك إلي أرض الجنوب، وسكن بين قادش

---

١ – ابن كثير : البداية والنهاية ...، ج١ ،ص١٤٤.

٢ – نفسه : ص١٤٢.

٣ – المسعودي: مروج الذهب ...، طبعة المكتبة الإسلامية، ج١ ،ص٢٠٠.

٤ – هومل : التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية...، ص٧٧.

وشور ـ تكوين: ٢٠ :١»، وتكرر التوراة الإشارة إلي الموضع (شور) عدة مرات، كموضع أو مدينة شهيرة في تلك البلاد الجنوبية التي ارتحل إليها إبراهيم، انظر كمثال: «تكوين:١٦: ٧ وأيضا ٢٥ :١٨ ، وأيضا ٢٠ :١»، ولأن الباحثين لم يعيروا مسألة الخروج من مصر إلي الجنوب اهتماما، فقد أخذوا بالقول التوراتي، وحسبوا وجهته إلي (بيت إيل) الفلسطيني، ومن ثم افترضوا أن المقصود من (شور) هو بلاد آشور الرافدية شمال شرقي فلسطين، وكانت تتمركز آنذاك في الجزء الشمالي من بلاد الرافدين.

ومما يشكك لدينا في كون (شور) قصد بها دولة (آشور) الرافدية، فهو قول التوراة في موضع آخر «شور التي أمام مصر ـ تكوين: ٢٥ :١٨»، بينما بلاد آشور لاتقع في الطريق إلي مصر، ولا أمامها ولاخلفها، ثم إن التوراة في مواضع أخري كانت تتحدث عن بلاد آشور بالكلمة (آشور) وعن أهلها بـ (الآشوريين) وليس (شور)، ومن ثم تساءلت: لماذا لاتكون شور حسب أطروحاتي موضعا باليمن، وتكون بذلك من خير القرائن علي صدق فروضي؟ وبالفعل أخذت أبحث عن (شور) في بلاد اليمن، وجمعت المعلومات الجغرافية القديمة وإحداثيات الأماكن، ووزعتها علي خريطة اليمن، مؤسسا ذلك علي فرض أن المصريين الذين تواجدوا في جزيرة العرب (الجراهمة العمالقة بني منف) قد سكنوا اليمن أول أمرهم، وسبق أن أشرنا للمسلمات الموروثة التي سجلها المسعودي وابن هشام في كون العمالقة من بلاد اليمن، وأن علي هذا الفرض تتأسس فروض جزئية أهمها أن هؤلاء العمالقة كانوا سببا في إطلاق اسم مصر علي منطقة سكناهم في بلاد اليمن السعيد، لكن جهودي ضاعت هباء وأنا أرهق النظر والجهد في خريطة تلو أخري، وكدت أصرف النظر عن هذا الأمر حتي جاءني الدليل وأنا أقلب في صفحات موسوعة (د. جواد علي) وهو يؤرخ لدولة قتبان اليمنية القديمة، ويقول: إن أهم المدن القديمة فيها وأكثرها شهرة، كانت مدينة (شور).[1] وعليه يصبح ممكنا تدعيم الموقف بمزيد من الأدلة التي أخذت تتالي وتفرض وجودها.

ومن ثم عدنا إلي تاريخ (أورسيوس) للعالم، وبخاصة للجزء الذي يتحدث فيه عن جغرافية العالم القديم وحدود البلدان، فوقفنا علي أمر غاية في الأهمية، فبعد أن يذكر أورسيوس حدود مايطلق عليه اسم (مصر الأدني) يبدأ الحديث عما يسميه (مصر الأقصي)، وقد ذهب الباحثون بما فيهم محقق تاريخ

---

١ – د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٢, ١٩٧٨ ,ج٢ ، ص٣٢٣.

أورسيوس نفسه (د. عبد الرحمن بدوي) إلي أن مقصد أورسيوس بمصر الأدني هو منطقة الدلتا والوجه البحري من مصر، أو ما اصطلح علي تسميته بمصر السفلي، وأن مقصده بمصر الأقصي هو الجنوب المصري أو صعيد مصر، أو ما اصطلح علي تسميته (مصر العليا).

ولكن لو تابعنا أورسيوس سنجده يقول: «وأما مصر الأقصي فإنها بلد ممتد إلي **ناحية المشرق**، وحده في الجوف هو خليج العرب، وفي القبلة البحر المحيط، وفي الغرب مبتدأ من مصر الأدني وفي الشرق بحر القلزم».[1]

ومايجب التنبيه إليه هنا، هو أن أورسيوس يتحدث عن مصر الأقصي، بالنسبة الإحداثية لمصر الأدني، فيقول: إنها بلد ممتدة إلي ناحية المشرق، وعليه فلا يمكن أن يكون الصعيد هو المقصود، لأنه يقع جنوب مصر وليس شرقها، والمشرق بالنسبة لمصر ليس شيئا آخر سوي جزيرة العرب، ثم إنه يضع أول حدود مصر الأقصي وأعلمها (خليج العرب)، وخليج العرب ليس حدا من حدود مصر عليا أو سفلي، صعيدا أو دلتا، ثم إنه يضع الحد القبلي (القبلة) أو الجنوبي (البحر المحيط) وجنوب مصر هو عمق أفريقيا وليس في جنوبها بحار، فمابالنا والحد (بحر محيط)؟! أما جزيرة العرب، فحدها القبلي أو الجنوبي هو فعلا بحر محيط وهو الذي نعرفه بمصطلحات اليوم باسم (المحيط الهندي).

وفي موضع آخر يتحدث (أورسيوس) عن الزمان الذي مات فيه يعقوب النبي حفيد إبراهيم النبي، فيقول: «وفي ذلك الزمان مات شرايس أمير مصر، الذي زعموا أنه صار من الأوثان»[2]؟! وأول عجب هنا أن (أورسيوس) أو غيره من المؤرخين قد اصطلحوا في حال حديثهم عن ملوك مصر الكبري، سيدة بلاد الشرق القديم، باسم (الفراعنة)، ولم يذكر التاريخ حالة واحدة أشارت لملك مصري بغير اصطلاح فرعون، وعندما خرج القرآن الكريم علي مألوفه في نعت ملك مصر بفرعون، وأطلق علي ملك مصر زمن النبي

---

١ – أورسيوس : تاريخ العالم.، ص٦٢ ، ولا مناص هنا من افتراض أن أورسيوس قد ارتكب خطأ في حسبانه الحد الشرقي هو بحر القلزم، وذلك إذا احتسبنا بحر القلزم هو البحر الأحمر كما يزعم بعض الباحثين ، لكن لن يكون هناك أي خطأ إذا احتسبنا بحر القلزم هو عضد ذراع الخليج العربي الممتد من مضيق هرمز جنوبا نحو المحيط الهندي واعتبرنا الخليج من هرمز إلي الشمال هو الخليج العربي ، ولنلحظ أن الباحثين قد اختلفوا اختلافا بينا حول تعيين مواضع أسماء البحار والبلدان القديمة، علي الخرائط الحالية، وهو ما اختلف حولها كثير، نذكر منها علي سبيل المثال اكثرها إثارة للخلف ، مثل بحر القلزم، وبحر سوف، وبحر الملح، وبعض الأنهار مثل نهر فيشون ونهر جيحون ..الخ.

٢ – أورسيوس: تاريخ العالم ...، ص٩٧

يوسف اسم (العزيز)، كان ذلك مدعاة للشك في هوية الجالس علي عرش مصرآنذاك، وذهبت طائفة محترمة من الباحثين ـ لهذا السبب ـ إلي حسبان حكام مصر في ذلك العهد لم يكونوا مصريين، بينما ذهب بعضهم إلي افتراض أن يوسف وأهله دخلوا مصر وقت احتلالها من الهكسوس، لذلك أطلق القرآن الكريم علي الملك المصري في عهد يوسف اسم أو لقب (العزيز)، فما بال (أورسيوس) يتحدث عن «شرايس أمير مصر»؟ أما مصر نفسها فلم تعرف نصوصها كلمة أمير، إلا للدلالة علي ولاتها المنوبين عنها في ولاية البلدان التابعة لها، ونواب الفرعون علي الأمصار الخاضعة للإمبراطورية، إضافة إلي أننا قد بحثنا في قوائم ملوك مصر، وعلي مختلف القراءات فلم نجد ملكا حكم مصر باسم (شرايس)، أو (شرا) بعد حذف التصريف الاسمي (الياء والسين)، لكن مانعرفه يقينا أن بلاد اليمن قد عبدت معبودا باسم (ذي الشري)، وأنه قد انتشرت عبادته من اليمن إلي مختلف بقاع الجزيرة، حتي زمن الدعوة الإسلامية، واحتفظ بأصله اليمني محفوظا في اللازمة (ذي)، علي غرار (ذي يزن، ذي نواس)... الخ[1]، ولدينا افتراض إضافي هو أن المصريين القاطنين بلاد اليمن، ربما تمثلوا الأم الكبري مصر في معبود (ذي الشري) لأن (دو شريت) كان اسما من أسماء مصر، وبالتحديد الهضبتين.

نحن هنا إذن مع (مصر الأقصي) مع مصر أخري غير التي نعرفها، مصر تقع في طريقها مدينة (شور)، وأنشر حدودها خليج العرب وبحر محيط، وعبدت (ذي الشري) إضافة إلي حدها الغربي وهو مصر الأدني، والذي لاشك قصد به (أورسيوس) مصر الكبري التي نعرفها التي امتدت يدها الإمبراطورية لتطوي حدود بلدان ذلك الزمان، فطوت السودان، ونالت من الحبشة، ووصلت حملاتها إلي بلاد (بونت) الصومال، وفرضت علي ملكتها الحماية المصرية، لذلك يكون طبيعيا تماما أن تكون حدود مصر الجنوبية فيما وصل أورسيوس من علوم القدماء، تقع إلي الغرب من مصر الأقصي، أو ما افترضناه بلاد اليمن، ولايفصلهما سوي مضيق باب المندب الذي لم يمنع الاتصال بين البلدين طوال عصورهما (الحبشة واليمن)، لذلك كان تعبير أورسيوس الذي يغرب علي بال أهل زماننا، لكنه كان مفهوما تماما لأهل زمانه، «وفي الغرب مبتدأ من مصر الأدني»!!

ومن أهم ألغاز التاريخ الكبري، والأحجية التي حيرت ذوي الحجي، ولم تزل تلك القبور الهرمية والهضبية الهائلة في (عمان)، وفي واحة (يبرين)، وفي (ساحل الحسا)، وفي جزيرة (البحرين)، وبلغ عددها في جزيرة البحرين وحدها حوالي

١- د. جواد علي : المفصل... مذكرات، ص١٨٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢١٧، ٢٢٤.

١٥,٠٠٠ قبر (وذلك حسب تقدير الآثاري إبراهيم معاوية)، أو حوالي ١٧٢,٠٩٣ (وذلك حسب تقدير الآثاري لارسن)، تضم مايزيد علي ٥١٦,٢٧٩ قبرا إفراديا.

واللغز هنا يكمن في أن هذا العدد الهائل من القبور، لايتناسب مع عدد سكان البحرين، الذي لم يزد وقت ازدهارها علي ٩٦١٨ نسمة في أعلي التقديرات. لذلك كان أهم افتراضات حل اللغز، أن تلك القبور قد أعدت كمكان للدفن المقدس، لسكان وادي الرافدين، لكن أخطر اعتراض يواجه هذا الفرض هو: أنه لم يعثر في النصوص الرافدية ذاتها حتي الآن، علي ما يشير إلي اعتقاد الرافديين القدماء، في حياة سعيدة في عالم خالد من بعد الموت، بل إنهم لم يعتقدوا في البعث أصلا، حتي نتصورهم يعيرون الموت كل هذا الاهتمام ببناء مقابر هضبية، ومصاطب هرمية هائلة.

ويزيد الأمر بعدا عن الإقناع، هو أن تلك المقابر قد بنيت خارج حدود الرافدين، مما يدفع إلي التساؤل عن وجاهة السبب الذي يدفع لكل هذا العناء، في نقل رفات الموتي من بقاع شتي في الرافدين ليدفنوا علي سواحل الخليج العربي وعلي مبعدة أكثر من ثلاثمائة ميل أو يزيد؟ ومن هنا ظلت هذه القبور التي تنوف علي نصف مليون قبر، وتعد أكبر مقبرة في الشرق القديم، لغزا غير قابل للحل، مما دفع آخر من بحث هذا الأمر (كارلوفسكي)، إلي أن يرفع صوته متسائلا مستنكرا: «إنها ظاهرة تتطلب تفسيرا، إلا أن الجميع قد تجاهلوا ذلك».[١]

والحقيقة إن طرحنا لم يتركنا في موضع واحد مع المتجاهلين، ووفق خطنا المنهجي لانري في الأمر ألغازا ولا أحاجي تطلب تفسيرا، لأن الشعب الوحيد في الشرق القديم، الذي اهتم بتسخير جميع أنشطته الدنيوية من أجل حياته الأخروية، واعتقد جازما في عالم سعيد آخر، هو الشعب المصري بلا منازع، وهو الشعب الذي تميز بكثافة سكانية هائلة، تسمح أن تكون هجرة القليل منه كما كبيرا، قياسا علي جيران من الأمم، ناهيك عن أن هؤلاء المهاجرين كانوا يشملون العدد الأكبر من العارفين بأصول الدين.

وعند بحثي عن كل مايهم موضوعي في الكتب التي تناولت تاريخ اليمن، وجدت عند المؤرخ اليمني (أحمد حسين شرف الدين) معلومة خطيرة إذ يجزم بيقين أن الأمة التي عاشت هناك أو آنذاك كانت لاتقل عن أربعين مليون نسمة[٢]، وهو ما

---

١ - حول مقابر الساحل الشرقي لجزيرة العرب، انظر مجمل الأمر مفصلا في بحث (دلامبرج كارلوفسكي): دلمون مدخل إلي الخلود، ترجمة مصطفي كامل اللحام، مجلة الثقافة العالمية، المجلس الأعلي للثقافة، الكويت، عدد مارس، ١٩٨٣.

٢ - أحمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة ١٩٦٧، ج٢، ص٢٦.

لايمكن تصوره إذا قصرنا النظر علي مجموعة البدو الخيمويين المستقرين هناك، لكن يمكن قبوله في ضوء ماسبق وطرحناه.

وعندما كنت علي وشك إغلاق هذا الجزء من الدراسة، فاجأني دليل مهم وخطير، يصادق تماما علي أطروحاتنا، ولوجه الحق أننا لم نتوقع مثل هذه القرينة المبينة في الظروف الراهنة علي الأقل، وقد جاءنا الدليل في شكل خبر بالنشرة الإخبارية للصحافة بالتلفاز المصري، والتي تذاع حوالي الحادية عشرة صباحا يوم ١٩٨٨/٢/٢٢، ويقول الخبر: إنه قد اكتشف في مقابر جزيرة البحرين عدد من الجعارين الفرعونية، إضافة إلي تمثالين صغيرين لأبي الهول المصري، وقد تأكدت مصرية هذه القطع النادرة من الكتابة الهيروغليفية المنقوشة أسفل التماثيل، وفي ذات اليوم بحثت في الصحف المصرية عن مزيد، فوجدت الخبر ينزوي في ركن صغير من الصفحة الأخيرة بصحيفة الأهرام، ويقول: «أبو الهول صغير، اكتشافه في البحرين: عثر في البحرين علي نماذج صغيرة لتمثال أبي الهول، وقد نقشت أسفله بعض الكتابات الهيروغليفية، في أحد مدافن قرية سادة شمالي البحرين، وصرح عبد العزيز صويلح مراقب الآثار بإدارة السياحة والآثار بدولة البحرين، بأنه قد عثر علي تمثال أبي الهول الصغير الذي يعتقد أنه يستخدم كنوع من الأختام، وذلك ضمن مدفن خاص بامرأة».

إلي هنا ينتهي الخبر الصغير عن أبي الهول الصغير، الذي انزوي في الصحيفة، ربما عن استهانة بشأنه، لكن غاية مانرجوه، في ضوء ماقدمناه من شواهد في هذا البحث أن يعيد الباحثون إليه قيمته وقدره، ولربما أفرد لأبي الهول الصغير بعد ذلك صفحات، تليق بدلالات سفره الطويل إلي الساحل الشرقي لجزيرة العرب، منذ ألوف السنين، ثم نجد أكثر من رواية إخبارية، تشير إلي وقوع بعض الناس علي مقابر آثارية، أيام الجاهلية والإسلام يمكن بالتدقيق فيها، أن تجد العين الفاحصة أكثر من علامة مصرية قديمة، رغم ماشاب هذه الروايات من مزاعم تلفيقية، ومبالغات، وتخريجات ناتجة عن عدم إمكان التفسير الصادق، فاتجهت إلي تفاسير مزعومة تلتئم وواقع الفكر هناك وحينذاك، فيقول برهان الدين الحلبي في السيرة، إنه «في زمن عمر بن الخطاب، فتحت تستر المدينة المعروفة، فوجدوا تابوتا، أو في لفظ سريرا، عليه دانيال عليه السلام، ووجدوا طول أنفه شبرا، وقيل ذراعا، ووجدوا عند رأسه مصحفا، فيه مايحدث إلي يوم القيامة».[١]

ومعلوم أن العرب لم يعتادوا الدفن في غرف أو أقبية، كما لم يعتادوا دفن موتاهم

---

١ - السيرة الحلبية : ج١، ص٣٥.

في توابيت، أو وضعهم علي أسرة، والمواصفات الواردة في الرواية تطابق إلي حد مثير، أسلوب قدماء المصريين في دفن موتاهم، إضافة إلي ما أسماه النص مصحفا، أو كتابا، وهي عادة مصرية بحتة، وهو المعروف باسم (كتاب الموتي)، وكان يوضع في قبور الموتي بلا استثناء، ليهدي الميت في أخرته سواء السبيل، أما القول إن المقبرة المكتشفة في تستر المدينة كانت لدانيال النبي أو غيره فإنه من قبيل التخريجات لتفسير ماليس له تفسير. فواضح أن المقبرة كانت فخمة إلي حد احتاج معه المفسرون إلي شخصية تتناسب وعظمتها، ولم يكن العهد أنذاك يري من هم أعظم من الأنبياء، كما لم يكن ممكنا الزعم بأنها مقبرة نبي معلوم الشأن، لما في ذلك من حساسية تشوبها القدسية، والتابو، ومن هنا لم يُكن ثمة بأس من اختيار نبي توراتي مثل دانيال، لاتزعج المسلمين مسألة دفنه سواء علي سرير أو في تابوت، في كثير أو قليل.

وثمة رواية أخري أكثر إفصاحا عن المصرية، واضح أنها تتحدث عن كشف لمقبرة من نوع خاص. فيروي السهيلي، حديث عبد الله بن جدعان - وهو شخصية حظيت بالأهمية - حتي سجلها كتاب التراث المسلمون بعد زمان، لما حالفه من حظ الثراء المفاجيء والغني الذي لم يبلغه غيره، فيقول: «وكان ابن جدعان في بدء أمره صعلوكا ترب اليدين، نفاه أبوه وحلف ألا يؤويه أبدا، فخرج في شعاب مكة حائرا بائرا يتمني الموت أن ينزل به فرأي شقا في جبل فظن فيه حية، فتعرض للشق يرجو أن يكون فيه مايقتله فيستريح، فلم ير شيئا فدخل فيه، فإذا ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين، فحمل عليه الثعبان، فأفرج له، فانساب عنه مستديرا بدارة عندها بيت، فخطا خطوة أخرى فصفر به الثعبان وأقبل عليه كالسهم، فأفرج عنه، فانساب عنه قدما لاينظر إليه، فوقع في نفسه أنه مصنوع فأمسكه بيده، فإذا هو مصنوع من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره، وأخذ عينيه ودخل البيت، فإذا جثث علي سرر طوال لم ير مثلهم طولا وعظما، وعند رؤوسهم لوح فضة فيه تاريخهم، وإذا هم رجال **من ملوك جرهم**، وإذا في وسط البيت كوم عظيم من الياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علّم الشق بعلامة وأغلق بابه بالحجارة، وأرسل إلي أبيه بالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه، ووصل عشيرته كلهم، فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز، ويطعم الناس ويفعل المعروف».[1]

ولعله واضح أن كلتا الروايتين تبالغ في أحجام المومياوات المكتشفة فأنف

---

١ - السهيلي : الروض الأنف ج١ ،ص١٥٩

المزعوم أنه دانيال من شبر إلي ذراع، والجثث التي عثر عليها ابن جدعان لم ير مثلها هولا وعظما، وهو أمر يعكس الظن الصادق من جانبنا في أصل أصحاب هذه المقابر، وأنهم ربما كانوا عمالقة، لذلك كان السهيلي سهلا في فهمه، فأضاف دون حرج عن هذه المومياوات قوله: «وإذا هم رجال من ملوك جرهم»، وهو مايصادق علي زعمنا أن العمالقة هم الجراهمة هم المصريون، كما لايحتاج لبيان قصة الثعبان، الإله المصري (مجر ـ ست) الثعبان، حامي التيجان والتميمة المقدسة، وحامي المقابر الملكية، وكانت توضع له نماذج في مقابر العظماء من الذهب الخالص، ويطعم بالأحجار الكريمة، هذا إضافة إلي اكتشاف ابن جدعان أنه مصنوع، رغم الإخراج الفني. للرواية الذي يزعم له حركة وهجوما.. الخ إضافة إلي أن لوح الفضة عند الرأس والقدمين يسجل الابتهالات من أجل الميت، هو طقس مصري قديم، واضح المصرية. وإذا كنا قد وقعنا إبان بحثنا علي مثل هذه النوادر، في كتب الأخبار الإسلامية فلاريب أن الذي لم يصادفنا أكثر، كما لاشك أن مثل هذه النوادر والكشوف لم تكن كل الكشوف الحقيقية، إنما فقط ماوجد منها طريقه إلي التسجيل، إضافة إلي حسبان أنها كشوف تمت بالصدفة البحتة، ممايشير إلي عدد لاشك كبير، من القبور التي تناثرت علي صفحة الجزيرة تعلن عن أصحابها.

أما الأمر العظيم لأمرنا هذا، ذاك الذي أدهش أهل التاريخ، ولأن المدهشات في التاريخ كثيرة، فقد اكتفوا بإبداء الدهشة ووضعوا أمامه علامات التعجب، وسجلوا حوله استفهامات تطلب إجابات لم تأت أبدا، ثم غلفوه بعناية وحفظوه، في سلة مهملات التاريخ، وأرشفوه ضد مجهول!

وهو مايوجزه الباحث العراقي، والمؤرخ الكبير (طه باقر) يلخص فيه أمر هذا المدهش، واتجاهات أصحاب الرأي فيه، في كتاب من أضخم كتبه وسمه باسم (الوجيز) يقول فيه: إن نصوص الحضارة الرافدية، كانت تتحدث عن بلاد ذات علاقات مستمرة، مع بلاد الرافدين القديمة، أهمها قطران ترافق ذكرهما في النصوص المسمارية، ممايشير إلي تجاورهما، وهما: قطر(مكان) بكسر الميم، وقطر (ملوخا) ويوضح أن الباحثين قد اتخذوا قرارا باعتبار (مكان) هي منطقة (عمان) الحالية بجزيرة العرب، وقد أشارت النصوص المسمارية إلي واحد من ملوك القطر (مكان) باسم (مانيئيم)، وأنه كان معاصرا لفترة حكم الملك

الرافدي (نرام سين)، أما القطر الثاني (ملوخا) فقد عينه الباحثون بالحبشة الحالية.[١]

أما ذلك المدهش الذي ظل بلا إجابة، فيأتي في تساؤل (طه باقر): «ومع أن الاسم مكان كان يطلق علي منطقة عمان في العصور القديمة، إلا أن الاسم نفسه صار يطلق في العصور المتأخرة من تاريخ العراق القديم، علي بلاد مصر، الأمر الذي يثير تساؤلا محيرا، هو: هل كان المقصود من قطر مكان وملكه مانيئيم في عهد نرام سين بلاد مصر؟!»[٢]، ولا يغيب عن القاريء أن عمان أرض يمنية، ولم تزل تحسب كذلك، كما لايغيب عنه أيضا أن الأستاذ باقر، قد اكتفي بطرح السؤال وإبداء العجب، وتجاوز الأمر بعد ذلك إلي سرد باقي تفاصيل تاريخ العراق القديم.

وعند المسعودي رواية، يتحدث فيها عما يسميه بحر الزنج، فيقول: «وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار، وهي قصبة بلاد عمان، مع جماعة من نواخذة السيرافيين، وهم أرباب المراكب، وذلك بميكان وهي محلة سيراف»[٣]، (لاحظ أن الكلمة سيراف تعني ثعبان والسيرافيين إذن هم أصحاب الثعابين، ولاننسي الطقس المصري في وضع نموذج مصنوع للحية علي الرأس كتميمة للحماية).

إذن فالمسعودي كان يعرف في بلاد اليمن موضعا باسم (ميكان)، واستخدم الرافديون القدماء اسم (مكان) للدلالة علي بلاد يمنية وعلي أرض مصرية في الوقت ذاته، مماشكل إزعاجا للباحثين، لانري له محلا بعد أطروحاتنا، وما قدمناه من قرائن، تفترض أن اليمن حازت اسم مصر بأهلها من مصريين، كما أن الاسم (مانيئيم) الذي أشير إليه في النصوص المسمارية كملك لبلاد (مكان)، في ضوء التحليل اللغوي يمكننا أن نري فيه شاهدا علي فرضنا، فهو بالقلب يصبح (يمنيم) والكلمة يمنيم في اللغات السامية العراقية، وفي العبرية، هي جمع للمفرد (يمني).

أما الذي يجب أن نذكره الآن فهو أن أداة التعريف اليمنية، كانت (ن) تلحق بآخر الكلمة، وعليه فإن (مكان) إنما هي (مكا)، وهو مايجعلنا نفهم بوضوح حديث النبي

---

١ – طه باقر: الوجيز في تاريخ الحضارات القديمة ، دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٦ ، ج١ . ص،٣٥٩,٢٣ (وللطرافة تذكرت وانا أطالع الوجيز، وتأكيد المؤرخين ان الحبشة هي ملوخا القديمة بعد فحص ودرس ، بائعي الخضر في لبنان، وكانوا يثيرون عجبي بندائهم لتجويد بضاعتهم : حبشية ياملوخية، وأدركت لماذا الإصرار علي أن الملوخية حبشية، أو من ملوخا، واستدعي ذلك بدوره احتراما لذاكرة الأجيال، التي لم تعِ بحثا لتصل إلي أن ملوخا القديمة هي الحبشة الحالية، فقد كان بائعو الخضر يعلمون أن ملوخا هي الحبشة ، لذلك كانت الملوخية حبشية؟!)

٢ – نفسه : ص٣٧١.

٣– المسعودي : مروج الذهب ... طبعة المكتبة الإسلامية،ج١ ،ص١٨

محمد (صلي الله عليه وسلم)، الذي كان فيما يبدو واضح المرامي لدي المسلمين الأوائل، وهو يقول (صلي الله عليه وسلم): «ما هنا يمن وما هنا شام ، **فمكة من اليمن**» [1]، وقوله (صلي الله عليه وسلم): « أتاكم أهل اليمن وهم أرق أفئدة وألين قلوبا، **الإيمان يمان**، والحكمة يمانية»[2]، وقوله (صلي الله عليه وسلم): «أنا يمان والحجر الأسود يمان، والدين يمان»[3] وفي الحديث أيضا: أن أول من أجاب إبراهيم حين أذن بالحج هم **أهل اليمن**[4]، وروي البخاري أن الرسول (صلي الله عليه وسلم) قال: الإيمان هاهنا، **وأشار بيده إلي اليمن**.[5]

وقبل أن نستطرد في الحديث عن (مكة اليمنية) بعد الدليل النقلي عن محمد «صلي الله عليه وسلم»: أن مكة من اليمن، لابأس من ذكر بعض التداعيات، فالصفة (أم القري) صفة مكة، وتعني أم البلاد أي أم الدنيا، والنعت (أم الدنيا) يستدعي مصر حتي لو لم تذكر بالاسم، وفي دراسة الباحث (نجيب البهبيتي) للملحمة جلجامش الرافدية، يذهب إلي أن الملحمة من أصل يمني، وهذا لايعني موضوعنا، لكنه في معرض هذه الدراسة مر مرور الكرام، علي معلومة تعنينا، تماما، وهي أن الباحثين قد وصلوا إلي أمر شبه مؤكد، يؤكد **أن أقرب اللغات القديمة إلي لغة المصريين القدماء، هي اللغة اليمنية القديمة**![6]

أما نحن فقد لحظنا شبها كبيرا بين طريقة تخطيط الخط اليمني المسند، وبين خطوط الكتابة السينائية، (في عام ١٩٠٥ عثر فلندر بتري في مناجم النحاس المصرية، بوادي معرار غربي سيناء، بين السويس ورأس محمد، علي رسوم بدائية وأحد عشر نقشا في أبجدية جديدة، خليط بين الهيروغليفية وإشارات أخري أجنبية)، وقد عقب المؤرخ والآثاري (ديتلف نيلسن) علي هذه الكتابة بقوله: «إنها تشير إلي الأصل المصري للأبجدية، أو الأبجدية الأم، وترجع إلي ١٨٠٠ ـ ١٥٠٠ق.م وهي الحلقة المفقودة في تطور الأبجدية»[7]، بينما عقب الآثاري (فرتز هومل)

---

١ – ورد عند الفخر الرازي : تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق سهيل زكار، دمشق، ١٩٧٥، ص١٣٥

٢ – رواه البخاري عن أبي هريرة ، انظر ابن كثير : البداية والنهاية، ج٥، ص٦٢.

٣ – أوردته ثريا منقوش في : التوحيد يمان ، دار الطليعة، بيروت ، ١٩٧٧ ،ص٨٧

٤ – أورده نجيب البهبيتي في : المعلقة العربية الأولي عند جذور التاريخ، دار الثقافة ـ الدار البيضاء، المغرب ، ط١، ١٩٨١، القسم الأول ، ص١٦٤ ، أخذ الحديث عن الأزرقي في أخبار مكة.

٥ – رواه البخاري عن أبي مسعود ، انظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج٥، ص٦٢.

٦ – نفسه : ص١٦٥.

٧ – ديتلف نيلسن: تاريخ العلم ونظرة حول المادة ، ضمن كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية القاهرة. ١٩٥٨، ص٤٩، ٥٠.

بالقول: «إن هذه الكتابة تؤكد العلاقة بين الأبجدية السامية والمصرية، لأنه من المستبعد أن توجد أبجديتان مرتين في العالم القديم، ومستقلتان عن بعضهما، وتستخدمان الحروف الصامتة وإشارات الهمز».[1]

وهذا يعني لدينا أن الاتصال الذي حدث بين المصريين والساميين، وراء هذا التطور في الأبجدية، التي انتقلت إلي مسند اليمن بعد ذلك، (وفي ضوء هذه الملحوظات قد نرجو أن يجد بحثنا هذا طريقه إلي اقتناع باحث مهتم بالكتابة القديمة، حيث تفوق دراسة هذه النصوص ـ دراسة دقيقة ـ قدراتنا، فلكل أربابه والعارفون بدقائقه ومنمنماته).

وملحوظة أخري مهمة في هذا المجال، هي أنه قد عثر مؤخرا علي منطقة أثرية شمالي شبه الجزيرة العربية، ثبت أن دولة معان اليمنية، قد أقامتها في هذه المنطقة كمستعمرة متقدمة، ومحطة ترانزيت تجارية، باسم (معان مصران) والترجمة الدقيقة لاسم هذه المستعمرة هي: معان المصرية!

أما مالفت النظر فهو عدم إمكان وجود تفسير مقبول لهندسة ري متقدمة إلي حد كبير ومتميز في اليمن القديم، دون سوابق وتمهيدات، وما كان ممكنا أن تنشأ دون خبرات طويلة سابقة، لاتتوافر إلا لدي سكان مناطق نهرية من الأصل، وهو مايمكن وضعه كقرينة مع سابق أدلتنا علي سكني المصريين بلاد اليمن.

---

١ – فرتز هومل: التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية...، ص٦١.

مكة اليمنية

في النقوش المكتشفة حتي الآن، في آثار الجنوب العربي، ورد اسم غريب **أكثر من ألف مرة**، وكان واضحا أنه علم علي إله معبود، زعم الباحثون في آثار اليمن أنه اسم لمعبود سبئي، كما زعموا أنه كان إله القمر، ويعد أشهر معبودات اليمن طرا، وقد اجتهد هؤلاء في فهم الاسم مابين اللامع والثاقب هذا هو الإله الذي سجلته النقوش باسم **(المقة)**.(١)

لكن على الجانب الآخر، يكشف لنا القرآن الكريم أن سبأ قد عبدت الشمس، وجاء ذلك في قول الهدهد لسليمان، وهو ينقل له خبر ملكة سبأ: ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ - ٢٤ - النمل. والمعلوم عن عبادة الشمس أنها تسود في المناطق النهرية والبلدان الزراعية، لما تقوم به الشمس من دور أساسي في حياة النبات ونضوج المحصول، لذلك عبدها السومريون باسم (أوتوا AUTU) وعبدها البابليون - وهم شعب سامي - بالاسم (شمس SHAMASH) والمصريون عبدوا الشمس باسم (رع RA) و(آمون رع RA- AMON) و(آتوم رع RA - ATUM) وفي كل الحالات كان هو رب الدولة والعرش، أما القمر فكان في العادة معبود الصحراء والبدو، لما له من أهمية في ليلها الموحش، ومن ثم فإن إشارة القرآن الكريم لعبادة دولة سبأ اليمنية للشمس، إشارة واضحة لارتباط هؤلاء أيضا بالفلاحة والزرع، ويقول السهيلي: «وسبأ اسمه **عبد شمس وكان أول من تتوج من** ملوك العرب».(٢)

ورغم أن الأمر ليس بقاعدة دائمة، ولايمنع عبادة كلا الجرمين في أرض واحدة، فإن إشارة القرآن الكريم لعبادة الشمس في دولة سبأ، إنما تعني أنه كان الإله المعتبر لديهم عن بقية الآلهة، ومن ثم دفعتنا إشارة القرآن الكريم إلي مزيد من البحث وراء جذور سبأ، وكانت المفاجأة العظيمة أن يعلمنا الآثاري (فرتز هومل)، أن هناك إشارات لامجال للخلاف حولها، تؤكد قدوم السبئيين إلي بلاد اليمن، نازحين من مكان ما في الشمال، أما المفاجأة الثانية، فهي أن دولة سبأ بوجه خاص قد تميزت بكثرة الملكات من النساء، وهو أمر إن كان غريبا تماما علي الطبع البدوي، فإنه بشواهد التاريخ وطبيعة المجتمع، لم يكن غريبا علي المصريين! فآثار الرافدين تذكر في نصوص (بتجلتجسلر الرابع) ملكة من سبأ باسم (سمس)، كذلك أشارت نصوص الرافدين إلي ملكة سبئية باسم (زبيبي)، كذلك أشارت نصوص العاهل

---

١ - ديتلف نيسلن : الديانة العربية القديمة ..ص٢١٠ ص١٧٧.
٢ - السهيلي : الروض الأنف ... ج١ ص١٩.

الرافدي (أسر حدون) إلي ملكة سبئية دون أن يشار إليها بالاسم، وأخري ذكرتها نصوص (سنحريب) ومن أسماء ملكات سبأ اللاتي أنشأن علاقات مع حكومات الرافدين، الملكة (يثعي) والأميرة (تبوءة) أيام حكم الملك الرافدي (أسر حدون).[1]

ولكن كان لعبادة القمر أيضا، دورها لدي سكان اليمن وكل بادية العرب، فقد عبده القتبانيون والحميريون بالاسم (عم) وعم القبيلة سيدها، وعبده الحضارمة باسم (سين) و(ياسين)، وعبده المعانيون بالاسم (ود) وعبده السبئيون كماسبق وأشرنا، حسبما يذهب المؤرخون باسم (المقة)، وإن كان لدينا تصور خاص يذهب إلي أن عبادة (المقة) تمثل نوعا من التطور في العبادة، ومبعثنا إلي ذلك هو أن كل أنواع الآلهة التي ذكرها الإخباريون المسلمون عن عبادات العرب قبل الإسلام ذكرت شتي أنواع الآلهة بأسمائها عدا (المقة)، رغم أنه كان أشهر هذه الآلهة، ولم يكد يخلو نقش من اسمه، ومع ذلك وجدت جميع الآلهة طريقها للتدوين في كتب الأخبار بينما لم يرد اسم المقة بالمرة، وهو ما أثار حيرة الباحثين ودهشتهم ولم يزل!! ومن هنا وقفنا مع (المقة) ذلك الاسم الغريب، نحاول الفهم.

ووجه الغرابة في نظرنا يكمن في أمرين: الأمر الأول ويتعلق بحرفي (ال) في أول كلمة (المقة)، ونحن نعلم أن أداة التعريف في العربية الشمالية كانت هي (هـ) في أول الكلمة، مثل (هبعل) أي الإله (هبل) ثم أهملت العين بالتخفيف، لينطق بعد ذلك (هبل) كبير أصنام الكعبة زمن البعثة الإسلامية، أما في العربية الجنوبية، فكانت أداة التعريف هي حرف (ن) يلحق بآخر الكلمة، مثل قولهم: (رحمنن) أي (الرحمن)، ومن ثم كان تساؤلنا: ماهي دلالة الألف واللام في اسم (المقة)؟!

أما وجه الغرابة الثاني، فيتعلق بحرف التاء الأخير في (المقة)، وحرف التاء مضافا أو لاحقا بآخر الكلمة، سواء عربية شمالية أو جنوبية، فكان غرضه التأنيث، بينما تفهمنا النصوص، التي راجعناها أكثر من مرة عند (جلازر) و(هوميل) و(نيلسن) و(كانالكيس) وغيرهم، أن المقة إله ذكر، ومن ثم كان تساؤلنا الثاني عن الحكمة من إضافة (تاء) التأنيث لاسم علم، يدل علي معبود ذكر؟

وقد سبق لنا أن عالجنا هذه الجزئية في بحث مستقل، نشرته الكرمل (عدد ٢٦ تصدر في نيقوسيا)، وبدأنا بالمشكلة الأولي (الألف واللام - إل)، ووجدنا حلها في عدة إشارات، نذكر منها إشارة (موسكاتي) إلي شخصية إلهية، وصفها بأنها

---

١ - فرتز هومل: ص٦٢،٦٣.

غامضة، تحمل اسم (إل)[1]، وقد سبق وأشرنا إلي معبود عبراني يحمل ذات الاسم (إل)، وكان قبل ذلك علما إلهيا معروفا في بلاد الرافدين والشام القديم، وإشارات أخري أكد فيها (نولدكه) وأخرون، وكذلك (د. جواد علي) أن (إل) كان إلها معروفا في عبادات الشعوب السامية القديمة بلا استثناء[2]، إلا أن هؤلاء لم يوضحوا لنا دلالته بشكل صريح، كذلك أكد (ديتلف نيلسون) أن معبودا باسم (إل) كان معروفا في كل بقاع جزيرة العرب (ونيلسن من أبرز أركيولوجيي الجزيرة وبخاصة الجنوب العربي)، ويري أنه كان اسما ذا دلالة عامة، فيقال: (إل كذا)، ويتبع (إل) باسم الإله المقصود، ويضيف (نيلسن) أن (إل) ورد كعلم لإله خاص في النقوش السبئية والقتبانية[3]، ورغم أهمية هذا الأمر فإن نيلسن لم يوضح لنا أي إله خاص تسمي بالاسم (إل) وعلي أية منطقة من الطبيعة، أو علي أية ظاهرة طبيعية كانت دلالته، هذا وقد أفادنا (ريكمانز) أن (إل) قد جاء في النقوش السبئية، يحمل اللقبين (فخر) بمعني العظيم، و(تعلي) بمعني تعالي[4]، أما هوبر فقد أثمرت أبحاثه ونشاطه، الكشف عن (إل) في النقوش الثمودية بالصيغة (إله ـ ن)[5]، وباعتبار حرف (ن) الأخير هو أداة التعريف، فإن المعني واللفظ سيكون (الإله) أو (الله).

وتأسيسا علي هذه المعاني يمكننا الزعم أن حرفي (أ) و(ل) في أول المقة، إنما تعني الله أو الإله، وبذلك تتركب كلمة (المقة) من مقطعين أو ملصقين، وهي خاصية في اللغات السامية، فتعني الإله أو الرب (مقة)، ونتذكر مرة أخري أن الإخباريين المسلمين، كان واضحا أنهم لايعلمون شيئا عن (الرب مقة) سيد أرباب الجنوب.

وتبقي الإشكالية الثانية، وهي (تاء) التأنيث في (المقة)، وأتصور حلها يمكن استخلاصه من نص قتباني، يشير إلي الذبائح المقدسة بقوله: «مختن ملكن بمكي»[6]، وتأخذ الباحثة (منقوش) بترجمته إلي (المذبح الملكي بالموضع مكي)، وعليه فالنص يشير إلي موضع للذبح المقدس وتقديم القرابين، وأن هذا الموضع يقع في منطقة تحمل الاسم (مكي) مع ملاحظة تعبير النص الأصلي (مختن) فهو يعني مقر(الختان) ، والختان كما هو معلوم كان شرعة مقدسة، تمارس في أيام محددة

---

١ - موسكاتي : الحضارات السامية القديمة ...، ص١٢٧.

٢ - جواد علي : المفصل...، طبعة المجمع العلمي العراقي، ج٥،ص١٧.

٣- ديتلف نيلسن: الديانة العربية القديمة...، ص١٨٤.

4- Rykmans "Cyanzague" Les noms Propres Sud- Semi tiques,lavain, 1934, VolI, p1, 2, Vol II, P. 27, 33

٥ - أورد ذلك نيلسن في الديانه العربية القديمة ...، ص٢١٢.

٦ـ ثريا منقوش: التوحيد يمان...، ص١٧.

في أماكن مقدسة، لدي الشعب المصري بوجه خاص، ولم تزل تمارس في مقامات الأولياء وموالدهم حتي اليوم، إضافة إلي أن المختن تعني أيضا المذبح.

وهنا يثور التساؤل الحذر: إذا كان المعبد المقدس للإله حيث تتم عملية الختان، أو تقديم الأضاحي، يقع في منطقة (مكي) فهل هناك علاقة بين اسم الإله الغامض (المقة) أو (الرب مقة)، وبين (مكي) في النص: مختن ملكن بمكي؟

هناك مشكلة ظاهرية يمكن أن تواجه هذا الاقتراح، وهي أن النص قتباني، وقتبان كانت تعبد الإله القمر باسم (عم) وليس باسم (المقة)، إلا أن هذه المشكلة الظاهرية يمكن أن تساعد علي الحل، ولنطرح تصورنا لهذا الحل في الخطوات التالية:

١ ـ ورد عند ابن طيفور المصري، وعند القيرواني، أن بعض أهل اليمن كانوا يقلبون القاف كافا، كما يفعل أهل فلسطين اليوم، وكثير من المناطق الأخري، وفي اليمن ذاتها، ومن هنا لانستبعد العلاقة بين (مكي) و(مقة).

٢ ـ إن إشارة النص القتباني إلي المذبح الملكي بكونه في الموضع (مكي) مع ماعرفناه عن تقديسهم للإله (إل) وتلقيبهم له باللقبين (فخر) و(تعلي)، والصيغة التي يعتبرها (هوبر) لقيته، أقصد (إله ـ ن) أي (الله) وتشير إلي (إل)، ومع ماعلمناه عن «إل» كعلم ذي دلالة خاصة علي إله خاص لدي القتبانيين والسبئيين معا ـ فيما زعم نيلسن ـ ومع ما افترضناه حول كون (الألف) و(اللام) في أول (المقة) إنما هي (إل) أي إله أو رب، مع هذه المجموعة من الإشارات، نجدنا شبه مضطرين إلي استنتاج أن معبد (إل) علي الأرض، سواء كان قتبانيا أم سبئيا، إنما كان يشار إليه بالاسم (مكي) ويقدس معبده ومحيطه كحرم خاص له.

٣ ـ ومن هنا نقترح أن يكون اسم (المقة) ليس خاصا بإله خاص، إنما يعني (إل مقة) أو (إله مكي) وهنا ننتقل خطوة أخري فنحتسب ترجمة النقش (المقة) إلي (الرب مقة) ترجمة غير دقيقة، ويجب أن تكون (إله مكي) أي إله المعبد المسمي (مكي) وبذلك لايعد لفظ (المقة) اسم علم يطلق علي إله القمر السبئي ـ كما زعم الباحثون ـ إنما يصبح مع هذا الاجتهاد بمعني (رب البيت) أو (بيت الرب)، ويعضد ذلك أنه فيما يبدو كانت كلمة (مك) أو (بك) تعني البيت، أو ربما البيت المقدس في اللسان السامي، ومثال لذلك معبد (بعلبك) في لبنان، والكلمة (بعل ـ بك) تعني بيت البعل، وكان البعل إلها كنعانيا فينيقيا في تلك المناطق كإله للخصب والخضرة والنماء وربا للمياه والغيث، وعليه يمكن اعتبار (إل مقة) هي (بيت الرب) أو (رب البيت)، وعادة ماتواتر في تاريخ العبادات القديمة إطلاق اسم (بيت الرب أو رب

البيت) علي محيطه ومدينته بالكامل، وهو ما حدث في حالة (بعلبك)، وحدث أيضا في اليمن حيث وجدنا ـ كما سبق وفصلنا ـ نصوص نرام سين تتحدث عن (مكان) بكسر الميم، كبلد يمني ذي علاقات خاصة ببلاد الرافدين القديم، وحيث أشار المسعودي لوجودها في عهده، وقال إنه ركب السفينة من (ميكان) وبحذف أداة التعريف اليمنية (ن) تصبح (ميكا) أو (مكا) بكسر الميم، وهو مايوعز لنا بالنطق الأصدق للنص القتباني (مختن ملكن بمكي) ليصبح (مختن ملكن بميكا أو بمكا).

٤ ـ ويدعم هذه الاستنتاجات، ماجاء في النصوص السبئية تصف الرب المعبود بأنه (ذوي سموي)[١]، وتعني صاحب السماء أو رب السماء، وإذا أخذنا بافتراض العلماء أن (المقة) فيما زعموا كان إلها للقمر، فسيكون (ذوي سموي) هو (إل) أو (إله ـ ن) بالذات والتحديد، أي (الله)، أما (المقة) أو (مكة) فلم يكن اسما إلهيا، إنما هو حرم هذا الإله علي الأرض، أي يصبح (إل) هو (ذوي سموي) رب السماء، رب البيت المقدس المكرس لعبادته علي الأرض.

٥ ـ ويذكر (ديتلف نيلسن) أنه قد عثر علي كلمات احتسبها أسماء إلهية، أو ألقابا للمقة في النصوص السبئية، أهمها هنا اللفظ (رحمنن) أي الرحمن، واللفظ (حريمن) لكنه يترجم (حريمن) بمعني (محرم) أو (القديس)[٢]، لكن وفق ما طرحناه نجد هذه الترجمة غير دقيقة، إنما تستقيم تماما عندما نترجمها (الحرم) أو (القدس) بمعني الحرم الإلهي أو القدس الإلهي، وهي تلتقي تماما مع احتسابنا (المقة) إشارة للبيت الإلهي الذي يصح وصفه هنا بكلمة (الحرم) بينما هذه الكلمة (حرم) لاتعني شيئا إذا وصفنا بها ربا، وعليه تصبح (تاء) التأنيث في آخر (المقة) أمرا مفهوما، إذا احتسبنا اللفظة دلالة علي موضع أو بلد مقدس باسم (مقة) أو (مكة) وإعمالا لكل ماسلف نصل إلي نتائج هي:

– إن (مقة) أو (مكي) أو (ميكان) أو (مكا) لفظ قصد به الإشارة إلي موضع الحرم الإلهي علي الأرض، وليس اسما لإله، وهو مايفسر لنا سبب عدم ورود اسم (المقة) عند الإخباريين المسلمين، بين ماذكروه من معبودات الجزيرة قبل الإسلام.

– إن لفظة (المقة) إنما تعني رب البيت أو علي الأرجح (بيت الرب) علي غرار (بعلبك) بيت البعل.

– إن رب البيت هو (إل) هو (ذوي سموي) أو رب السماء، هو (إله ـ ن) أو (الله)،

---

١ ـ نيلسن: الديانة العربية القديمة...، ص١٤٨.

٢ ـ المصدر نفسه: ص١٨٨.

أما أهم ألقاب المعبود في اليمن فهي ماترجمة الآثاريون إلي Monimos، وإلي Azizos مونيموس[1] أو مايعني ببساطة (العزيز) و(المنعم)، إضافة إلي لقب (الرحمن)، ولقب (الحكيم).[2]

ومن المعروف أنه بعد انهيار مركز (اليمن السعيد) التجاري، ودمار سد مأرب الشهير، نزحت قبائل اليمن نحو الشمال، لتستقر في أنحاء متفرقة من بلاد العرب، وتعلمنا كتب الأخبار أن أكبر هذه القبائل كانت (خزاعة)، وأن هذه القبيلة قد استقرت في المنطقة التي أصبح التاريخ يعرفها باسم (مكة) في الحجاز[3]، ومن الطبيعي أن تحمل هذه القبائل معها معتقداتها، ومعبوداتها، وطقوسها الدينية، وعلي رأس الجميع (رب البيت) وذكري (بيت الله)، ذلك الاصطلاح الذي يفسر لنا: لماذا ذكرت الأخبار معبودات الجزيرة ومعبودات اليمن بوجه خاص، دون ذكر (المقة)؟ والحقيقة المبنية علي ما أسلفنا أنه ذكر فعلا فهو (رب البيت) أو (بيت الرب).

وقد لاحظت الباحثة (ثريا منقوش) التشابه بين: ما اعتقدت أنه إله قمري لسبأ باسم (المقة) وبين (مكة) الحجازية، وربطت بين الاثنين في ضوء ماجاء عند ابن طيفور المصري، والقيرواني، عن بعض أهل اليمن، ولكونهم ينطقون القاف كافا، وماجاء علي لسان النبي محمد (صلي الله عليه وسلم) عن الفقه اليماني والحكمة اليمانية، لتصل إلي أن أهل اليمن هم أصل التوحيد في الجزيرة العربية، وأتصور أنه بعدما أسلفت من جهد، في التعامل مع الاسم (المقة) يمكن أن تكون ملاحظة الباحثة حول التشابه بين (المقة) و(مكة) قد تدعمت بشكل كاف.

وفي الروايات الإسلامية، أن منطقة الحجاز كانت صحراء بلقعاً، حتي انفجر زمزم تحت خد إسماعيل طفلا، فكان أول من جاء واستقر بجوار البئر، ركب من اليمن[4]، إضافة إلي ماجاء عن (عمرو بن لحي الخزاعي) عند الإخباريين المسلمين باعتباره أول حاجب للبيت، وفي ذلك إشارة واضحة إلي **بداية حجابة البيت مع الخزاعيين القادمين من اليمن**، خاصة إذا علمنا أن هذه الحجابة الأولي للبيت لاتبعد زمانيا عن تاريخ دمار سد مأرب، وتشتت القبائل اليمنية، بأكثر من نصف قرن[5]، مع رواية

---

١ ـ المصدر نفسه.

٢ ـ المصدر نفسه: ص١٧٧.

٣ – سيد القمني : الحج، مجلة الكويت، الإعلام الكويتية، عدد ١٢، ١٩٨١.

٤ – الصدوق القمي: علل الشرائع دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٢، ١٩٦٦، ج٢، ص٤٣٢.

٥ – محمود سليم الحوت : في طريق الميثولوجيا عند العرب ، دار النهار ، بيروت ط٢، ١٩٨٩، ص٤٩.

إخبارية أخري، تحكي عن (تبع الثاني) أحد ملوك اليمن، الذي قدم البيت الإلهي الحجازي وطاف به وقام ينحر للناس ويطعمهم، ثم كسا البيت بالبرود اليمنية، **وجعل له مفتاحا**[1] **ذاك المفتاح الذي استلمه الخزاعيون**، وأصبح فيما بعد محل صراع ونزاع، وانتهي به إلي يد (قصي بن كلاب) الذي ألف القبائل (وقرشهم تقريشا ومنها قريش)، ضد خزاعة وأخرجهم من مكة الحجازية، وانتزع منهم البيت وسواء حدثت قصة (تبع الثاني) أو لم تحدث، فهي تعبير عن ترجيع الذاكرة لصدي أحداث نشأة البيت وظروفه، وعلاقته بأهل اليمن، حتي جعلت مفتاحه بيد قبيلة خزاعة اليمنية، أما الباحثة منقوش، فقد أكدت ـ علي ذمتها ـ أن كثيرا من عبادات الحج للبيت الحجازي كانت علي غرار التقاليد اليمنية القديمة، في تأدية فروض العبادة والحج للإله (المقة)[2]، والملفت للنظر، أن (تبع) الملك اليمني، الذي سلم خزاعة مفتاح البيت وكهانته، يستدعي إلي الذهن اسم الملكة السبئية التي ذكرتها نقوش الملك الرافدي (أسر حدون)، أقصد الاسم **(تبوءة)** والغريب في بابه أن الاسم **(تبع)** في الترجمة الرافدية يصح تماما أن ينطق (تبوءة) أو (تبوءا) وهذا بدوره يستدعي اسم الشهر الخامس من السنة المصرية القديمة تبوة أو (طوبة) (   ) ومن المعتاد تسمية الأفراد وبخاصة الملوك بأسماء الشهور، مثل (تموز، أغسطس) وقد نجد العكس مثل (رجب، شعبان، رمضان، خميس، جمعة... الخ)، أما الأكثر إضاءة هنا هو أنك يمكنك العثور علي أسماء القبائل العربية، في أصول لسانية بالمعاجم العربية، وأن تجد لهذه الأسماء دلالاتها في أسماء الشهور والأيام، أو في أشياء الطبيعة وظواهرها مثل (حجر، كلب، سهيل، نجم... الخ)، أو حتي في فعل مثل (قريش من التقريش أي التأليف والجمع)، أما خزاعة فواضح أنه لم يجد لها اللسانيون أصلا واضحا، فوضعوا لها تخريجا غريبا، هو أنها سميت كذلك لتخزعها أي تأخرها وانقطاعها، والواضح أنه تخريج متكلف، فهل سميت خزاعة بالاسم خزاعة قبل انقطاعها؟

وإذا ما لجأنا إلي اللغة المصرية القديمة، سنجد الكلمة (خو ـ تكتب هيروغليفيا علي هيئة ذراع يحمل مدقا) تعني: حمي أو صان أو حرس[3]، والكلمة «سا ـ تكتب

---

١ – ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق طه عبد الرءوف ، شركة الطباعة الفنية المتحدة، القاهرة، ١٩٧٤، ج١، ص٢٠، ٢١

٢ – ثريا منقوش : التوحيد يمان... ص٨٦.

٣ – يمكنك أن تجد ذلك بدراسة مفاتيح اللغة المصرية القديمة، وقد أوردنا المصدر الأيسر هنا وهو: أنطون ذكري مفتاح اللغة المصرية القديمة، دار الشروق ، القاهرة د.ت. ص٧٣.

هيروغليفيا علي هيئة ذكر البط) وتعني :ابن[١]، لكن إذا أخذناها مكتوبة علي شكل مقعد، وتنطق في هذه الحالة (س) فقط، فإنها تعني الكرسي[٢]، أما الكلمة (عا ـ وتكتب هيروغليفيا في شكل وتد الخيمة) فتعني: الكبير أو العظيم[٣]، وعليه تعني الكلمة (خزاعة) أو (خوساعا): حراس الابن الكبير، (بمعني ابن الإله أو الملك) أي الحرس الملكي، أو تعني: حراس الكرسي الكبير، وتفيد المعني ذاته أي حراس العرش، وهو مايلتقي إلي حد كبير مع مذهبنا وأطروحاتنا.

والملاحظ أن الروايات الإخبارية، التي جمعت راسب العصور العتيقة، وسوالف أحداثها، تكاد تجمع علي أن البيت الإلهي القديم، قد تعرض لحدث تدميري، يتفق علي أنه بفعل سيول من الماء أتت عليه، فهذا السهيلي يصف الحدث بأنه سيل هائل صدع بنيان الكعبة[٤]، وهو بذلك إنما يتبع ابن هشام وابن اسحق[٥]، أما أصرح المعقبين علي الحدث فهو (برهان الدين الحلبي) الذي أكد أن البيت قد غرق بفعل طوفان نوح[٦]، وأن سر تسميته بالبيت العتيق، يرجع إلي أنه أعتق من سيطرة الجبابرة الذين كانوا بمكة[٧]، ـ إذن هم الجراهمة العمالقة! ـ كذلك (ابن سيد الناس) يتفق مع الغالبية علي القول بتصدع البيت بفعل سيل هائل[٨]، وكلها إشارات ترجع الصدي لذكريات العهود الخوالي، عن سيل العرم ودمار مأرب الذي أدي لانهيار السد وحدوث طوفانات المياه، والتي ربما حدثت إثر هزة أرضية أو تفجر بركان قريب، وماتلي ذلك من هجرة القبائل اليمنية بعقائدها شمالا.

لكن مايثير العجب، فإنه رغم اتفاق الرواة علي الدمار بسيل أو طوفان، فهم يتفقون علي أمر مخالف تماما، يقول إن البيت الإلهي المكي، سمي العتيق لأنه أعتق من الغرق بالطوفان النوحي، وهو تضارب نجد له مثيلا آخر حول ماجاء عن الكعبة اليمانية من ذكريات، وأنه كان يقال عنها: «الكعبة اليمانية والشامية ويعنون بالشآمية البيت الحرام»[٩]، وهو النص الذي أدي إلي خُلف واضح بينهم في التفسير

---

١ – المصدر نفسه : ص٨٢

٢ – المصدر نفسه : ص٩٢

٣ – الموضع نفسه

٤ – السهيلي : الروض الأنف ...، ج١ ،ص١٣٨

٥ – الموضع نفسه.

٦ – السيرة الحلبية: ج١ ،ص٢٧.

٧ – المصدر نفسه : ص٢٥٩.

٨ – ابن سيد الناس : عيون الأثر ..ج١، ص٦٧.

٩ – السهيلي : الروض الأنف : ..ج١، ص١٠٩.

والتبرير، بينما الواضح لدينا أن القول يشير إلي ذكريات صادقة لبيت قدسه يمنيون، وقوم جاءوا من بوادي الشام، بيت بني في اليمن، ثم بني بعد ذلك في مكة بيت يجمع بين معبود يمني قح كان اسمه (الرحمن)، ومعبود شمالي باسم (إل) أو (الله)، وهو ماعالجته بعد ذلك الآيات القرآنية بقولها: ﴿قل ادعوا **الله** أو ادعوا **الرحمن** أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسني ﴾١١٠ ـ الإسراء.

أما صفة (العتيق) إذا أخذناها بمعني العتق من الغرق، فستتضارب مع إجماع الرواة علي انهيار البيت بالسيل، لكن لن يكون هناك أي تضارب إذا ما أخذناها كإشارة للبيت القديم، فالعتيق تعني القديم، فهي صفة تلزم البيت دوما، مما يشير إلي أنها كانت تستخدم للتأكيد والتذكير بأمر بيت قديم أو عتيق، هو ذاك الذي زعمناه كان في اليمن السعيد، عندما كان سعيداً!!

وعند لوط

الخبر اليقين

إذن: لنوجز ما انتهينا إليه:

ارتحل النبي إبراهيم (عليه السلام) من مدينة (أور) الأرمينية في بلاد الحور، قاصدا أرض كنعان، وبعد الاستقرار هونا في كنعان الفلسطينية، يتوجه - بدفع القحط - إلي مصر الخير، لينهل منها ماشاء، ويرتبط ببعض أهلها صهرا، ثم لايلبث أن يخرج من أرض النيل ميمما نحو الجنوب إلي بلاد اليمن، حيث امتداد مصر بمهاجريها العظام، أو بفيالقها المتقدمة في حامياتها هناك وتغفل أقلام كتبة التوراة الأمر، وتقفز فوقه فتقول: إنه عاد من الجنوب إلي (بيت إيل) في فلسطين، دون تفصيل أو توضيح، مخالفة العهد بها مسهبة ومفصلة ومكررة إلي حد الإملال، لكن كان للحقيقة أقدامها الثابتة وومضاتها الباهرة، التي ظهرت لنا عدة مرات، وأفلتت في السرد التوراتي، لكن في غير مواضعها الأصلية.

ومن جهة أخري أفادنا التراثيون المسلمون، أنه في غابر الأزمان، حدثت في اليمن كوارث وحدثان، دفعت من استطاع النجاة نحو الشمال، ليتناثروا في بقاع الجزيرة والشام والعراق، وكان أنشر هؤلاء شأنا العمالقة، والذين زعمنا أنهم الجراهمة أو المنفيون، أو من افترضناهم مصريين سكنوا اليمن مصراً، ومن أخلافهم كانت خزاعة أو (خو - سا - عا) ليستقروا في بادية الحجاز، ويساعدوا هناك في بناء البيت الإلهي[1]، ويقيموا قواعده في مكة الحجازية، علي غرار البيت الذي أقامه أجدادهم من قبل في (مكا) اليمنية لـ (رب البيت)، لكن بعد أن ترك إبراهيم النبي (صلي الله عليه وسلم) بينهم، ولدهم المشترك (إسماعيل) الذي سار علي سنة أبيه، فاختارهم من دون الناس أصفياء وأصهارا، وعاد النبي الأب مرة أخري إلي الشمال حيث بيت إيل الفلسطيني محققا قول التوراة: «أراميا تائها كان أبي».

وفي نقوش سبأ نص يعني أمرنا هنا، يتحدث عن أول قاض من قضاة سبأ القبليين[2]، وفي هذا النقش يقول ذلك القاضي واسمه (سمه - علي)، **أنه قدم البخور والمر إلي (المقة)، باسمه ونيابة عن قبيلته التي قادها في الفيافي والقفار[3]**، وقد سبق وذهبنا إلي أن (المقة) لاتعني ربا محددا بهذا الاسم، كما ذهب الباحثون، إنما اعتبرناه يعني (رب البيت)، وقدمنا حججنا علي ذلك في حينه، وعليه نتساءل:

---

١ - جاء في الحديث عن الإمام علي عن النبي (صلي الله عليه وسلم) القول: «ثم تهدم فبنته العمالقة، ثم تهدم فبنته جرهم، ثم تهدم فبنته قريش»، انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ... ج٢ ص٢٢٦

٢ - القاضي القبلي شكل من أشكال الحكم قام لدي البدو قبل قيام ممالكهم، وعرفه اليهود أيضا

٣ - د. فؤاد حسنين: استكمال مطول وممتاز، ألحقه الدكتور فؤاد حسنين بترجمة لكتاب (التاريخ العربي القديم) مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٨٩.

هل كان هذا القاضي، (سمه علي) هو النبي إسماعيل، أو (سمعلي) هو النبي إسماعيل؟ التطابق في الاسم لايحمل لبسا، ونظام الحكم أوانها حسب إشارة التوراة كان قبليا، والظروف متشابهة، لكن لايمكننا الإجابة بأكثر من «ربما»؟!

هذا، ونظن أن أمر الكارثة الكبري التي حدثت في الجنوب العربي، ودفعت سكانه شمالا، قد ورد في التوراة، لكن في غير المواضع الصحيحة لتسلسل الأحداث، ونعتقد أننا لو تمكنا من إثبات ذلك، نكون قد دعمنا أطروحاتنا السابقة دعما جيدا، وسيكون هذا الإثبات دليلا علي مازعمناه حلقة مفقودة في التوراة، وافترضناه رحلة إبراهيمية من مصر إلي اليمن، وعودة منها، أغفلت الأقلام التوراتية تفصيلها ونظن سبيلنا إلي الإثبات إنما يكمن في قصة التوراة عن دمار مدينتي (سدوم) و(عمورة). التوراة تتحدث عن هاتين المدينتين كقريتين خاطئتين، دمرتهما الآلهة لكنها تضع المدينتين علي خريطة فلسطين، وحتي لايكون هناك مجال للتأكد من ذلك بالبحث الآثاري عنهما هناك، فإن التوراة تزعم أن (سدوم) و(عمورة) قد دفنتا تحت البحر الفلسطيني الميت، ومن هنا نتوقف مع رواية التوراة رويدا لارتباط هذه القصة بما زعمناه إثباتا لأطروحاتنا، إضافة إلي أن هذه الرواية لاتخلو من طرافة وعجب!!

تقول الرواية التوراتية، إن النبي إبراهيم قد أبدي لابن أخيه لوط، رغبته في الانفصال عنه، فأخذ لوط متاعه وغلمانه **واتجه شرقا**، ليسكن سدوم المجاورة لعمورة، علما أن أهلها كانوا يرتكبون من الإثم أفحشه، فيأتون الرجال من دون النساء شهوة، ووصفتهم التوراة بأنهم كانوا «أشرار وخطاة لدي الرب جدا ـ تكوين: ١٣:١٣».

وما إن يحط (لوط) رحله بين القوم، حتي تقرر آلهة التوراة القضاء علي هذا الشعب الأثم وإفنائه بتمامه، شيوخه وغلمانه وأطفاله ونساءه، إضافة بالطبع إلي الآثمين من الشبان القادرين علي مثل هذه المعصية، لكن هذه الآلهة كانت تريد ـ في الوقت ذاته ـ إنقاذ لوط، وأهل بيته وهم ثلاث من الإناث: زوجته وابنتاه.

ولتنفيذ القرار، ينزل ثلاثة من الأرباب من السماء، ويتوجهون أولا إلي النبي العم إبراهيم (عليه السلام) لإعلامه بالقرار أو كما يقول النص:

> وظهر له الرب عند بلوطات ممرا، وهو جالس في باب الخيمة، وقت حر النهار، فرفع عينيه ونظر **وإذا ثلاثة رجال** واقفين لديه.. (وبعد أن يصنع لهم إبراهيم ـ صلي الله عليه وسلم ـ طعاما يأتون عليه جميعا).. وإذا كان هو

واقفا **لديهم** تحت الشجرة أكلوا، ثم **قام الرجال** من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم **ماشيا معهم** ليشيعهم، فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟.. وقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر، وخطيتهم قد عظمت جدا، وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم، **وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب**
تكوين:١٨

ونفهم من رواية التوراة، أن هؤلاء الآلهة الثلاثة، قد ذهب اثنان منهم إلي سدوم بينما بقي كبيرهم مع النبي إبراهيم. وتستطرد لتقول: «وكان لوط جالسا في باب سدوم، فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما، وسجد بوجهه إلي الأرض، وقال: ياسيديَّ: ميلا إلي بيت عبدكما تكوين:١٩ :١ ، ٢.

وكما اعتدنا مع قارئنا في هذا البحث، الإطلال علي ما عَنَّ للقس العالمي (ماير) وكيف يري الأمور؟ والذي وصفه (القمص داود) المترجم بأنه «رجل عظيم»، وأنه بهذه الترجمة يرغب في إشراك المؤمنين معه في الاستمتاع بروحانيات (ماير)، حتي يستمتعوا مثله، يعقب (ماير) على القصة التوراتية هنا بالقول: «زار أولئك الضيوف الثلاثة خيمة إبراهيم، ولاشك أن أحدهم كانت تبدو عليه علائم العظمة والرهبة والجلال، أما الثالث الذي كان هو المتكلم الوحيد أثناء الضيافة فإن عظمته قد تجلت، ووقف إبراهيم يخدم الضيوف كخادم، بينما كانوا يتناولون الطعام تحت الشجرة، وفي المساء دخل المدينة (سدوم) اثنان منهم فقط، وأين كان الثالث؟ لقد تخلف عنهم ليكمل حديثه مع إبراهيم خليله» !!

ثم لايلبث (ماير) أن يشن حملة ضارية علي (لوط) ذاته، فيقول: إنه ماخرج مع عمه العظيم إلا ابتغاء تحسين مركزه المالي بزيارة مصر، وأمثاله يضعفون مستوي حياتنا الروحية، ويجرون غيرهم إلي طريق العالم والدنيا، ويجروننا إلي مصر (يرمز صاحبنا الفقيه هنا إلي الفساد الدنيوي بمصر كدأبه)، ثم يستنتج (ماير) أن فشل النبي إبراهيم (هو الذي يزعم ذلك!!) في مصر، وخطيته هناك، إنما ترجع إلي تأثير لوط السيىء عليه، بدليل أن اختياره كان منصباً علي شهوة الجسد، فذهب إلي سدوم رغم علمه بخطاياها، ثم يعقب المبشر الفاضل بالقول: «ولاشك أن أواخر أيام هذا الرجل الشقي كانت تعسة، إذ جرد من كل شيء، ووقف

وجهها لوجه أمام نتيجة خطيئته المشينة»[1]، ولاجدال هنا أن الأب (ماير) مؤمن تماما بما جاء في التوراة ومتسق مع إيمانه بهذا الكتاب، ولم يخرج عما تقوله للمؤمنين بها من أقوال مقدسة؟!

ونتابع رواية التوراة فتقول: إنه ما إن رأي أهل القرية تلك الوجوه الجديدة تتهادي في قريتهم نحو بيت لوط، حتي انحدروا سيلا ينهمر علي البيت، وحاصروه، ونادوا يطالبون بالمشاركة، أو كما يقول النص:

> وقبلما اضطجعا، أحاط بالبيت رجال المدينة، رجال سدوم من الحدث إلي الشيخ، كل الشعب من أقصاها إلي أقصاها، فنادوا لوط وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك؟ أخرجهما إلينا لنعرفهم (تستخدم التوراة لفظ يعرف بمعني ينزو)، فخرج إليهم لوط عند الباب، وأغلق الباب وراءه، وقال: .. هو ذا لي ابنتان لم تعرفا رجلا (وهو وضع طبيعي في ضوء العلاقة غير الطبيعية في المجتمع السدومي)، أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم.
>
> تكوين:١٩ :٤ـ٨

وهكذا تريد التوراة أن تفهمنا: أن الرجل الكريم، أراد أن يحافظ علي قانون الضيافة المقدس، بالتضحية بقانون أقدس منه، هو قانون المحافظة علي العرض، ثم تزيد الأمر نكاية بقولها مايفيد أن (لوط) كاد يدفع ثمن عناده، وبدا لأهل المدينة كما لو كان يسخر منهم بمنحهم الصبيتين، فهو يعلم أنهم لايمارسون الأمر ككل الناس والحيوان من منافذه الطبيعية، إنما هم بأسلوبهم عن سائر الأحياء يتميزون، فأنذروه هو أيضا، بالقول: «الآن نفعل بك شرا أكثر منهما ـ تكوين: ١٩ :٩» لولا تدخل الإلهين الضيفين، اللذين ضربا الجماهير ـ المضطرمة بالشهوة ـ بالعمي، وأخرجا لوطا مع زوجته وابنتيه من المدينة، فاتجهوا إلي مدينة خارج دائرة الدمار المقرر، هي (صوغر): «وإذا أشرقت الشمس علي الأرض، دخل لوط إلي صوغر فأمطر الرب علي سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء فقلب تلك المدينة، وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض، ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح ـ تكوين:١٩ :٢٣ ـ٢٧».

---

١ ـ ماير: حياة إبراهيم...، صفحات: ٤٦، ٤٧، ٥٢.

أما القرآن الكريم فيسرد سيرة (لوط) باعتباره نبيا، وتحدثنا الآيات فتقول: إنه كان مرسلا لهداية الفاسدين: ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين. إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون. وماكان جواب قومه إلاأن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ ٨٠ ـ ٨٤ ـ الأعراف.

ثم يتنزه القرآن الكريم بالإله عن الكثرة والتعدد، ويجل به عن النزول بذاته إلي الأرض للقيام بما يريد، فيقول: إنه إنما أرسل من ينوب عنه من ملائكة لتدمير القري الخاطئة، لكن بعد أن تلبس هؤلاء هيئات البشر، وذهبوا من فورهم إلي بيت لوط، مما أصابه بضيق شديد، لأنه يعلم ما سيحدث إزاء حسنهم الملائكي في مباءة الفجور: ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا **وقال هذا يوم عصيب** ﴾ ٧٧ ـ هود، وعقب ابن كثير علي هذا الكلم بقوله: «قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم، جبريل وميكائيل وإسرافيل، أقبلوا حتي أتوا أرض سدوم، في صورة شبان حسان، اختبارا من الله تعالي لقوم لوط وإقامة الحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضيِّفهم أن يضيِّفهم غيره، وحسبهم بشرا من الناس، وسيئ بهم وضاق بهم ذرعا، وقال: هذا يوم عصيب»[1]، (ولايفوت لبيب أن ابن كثير استبدل هنا الآلهة التوراتية الثلاثة، بثلاثة من الملائكة)، وتتابع الآيات الكريمة، تصف حال أهل المدينة، عند دخول الملائكة الحسان بيت لوط، فتقول: ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون. قال إن هؤلاء ضيفي فلاتفضحون. واتقوا الله ولا تخزون. قالوا أو لم ننهك عن العالمين. **قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين**. لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ ٦٧ :٧٢ ـ الحجر، و﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴾ ٣٧ ـ القمر، ويفسر ابن كثير بالقول: «وذكروا أن جبريل عليه السلام، خرج فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتي قيل إنها غارت بالكلية»[2]، أما الآيات فتتابع القول: ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين. فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ ٧٣ ـ ٧٤ ـ الحجر، ويختم ابن كثير الرواية بإضافة «وذكروا أنه ذهب إلي قرية صغر».[3]

والآن: ما علاقة كل هذا بموضوعنا؟

---

١ – ابن كثير : البداية والنهاية ...، ج١ ، ص١٦٨.

٢ – نفسه : ص١٦٩

٣ – نفسه : ص١٧٠

لإيضاح المقصد، نحيل القاريء إلي خريطة جنوب الجزيرة، حيث يجد في اليمن الحالية، مع التدقيق، قرية (الصوعر) قرب (موكل)، جنوب (هكر) بخمسة عشر كيلو مترا علي وجه التحديد، ولو اتجهنا علي الخريطة شرقا، ولنذكر تأكيد التوراة أن لوطا عندما هجر عمه اتجه شرقا، سنجد هناك قرية تدعي (ثمود) علي الأطراف الشمالية لليمن الجنوبي الحالي، وقد ورد في القرآن الكريم أن ثمود كانت قرية عامرة، دمرها الله لكفرها بالنبوات. وقد ورد في كتب التراث ـ كما سلف ـ أن اسم (ثمود) يدل علي واحد من شعوب العرب البائدة، ولما كنا نعلم أن حرف (ث) يتبادل مع حرف (س) ، فإن (ثمود) تكون (سمود)، ومع خاصية القلب، تكون (سمود) هي ذات عين (سدوم)!!

ولايغيب علي فطن أن الإخباريين المسلمين، قد ذكروا واحدا من أكبر معبودات ثمود، كان يدعي (صمود)[1]، والحرف (ص) يتبادل مع (س)، فهو (سمود). فهل لم يزل ثمة شك كبير، في أن (ثمود) اليمنية، هي (سدوم التوراتية)؟

[من الطريف، وأثناء مراجعة البروفة الأولي للكتاب، أن طالعنا التلفاز المصري يوم ٢١/٤/١٩٩٠ برسالة عمان، وكان أول أخبارها ـ لذلك لاشك هو أهمها ـ يوم العثور علي امرأة لوط، بعد أن تحولت إلي عمود ملحي وطالعنا بصورة لصخرة تعرضت لعوامل «تعرية»، وهو أمر طبيعي إذن! وبدا المذيع في غاية الجذل والسعادة لهذه اللقية التي عثروا عليها بالأردن وشقوا من أجلها الطرق السياحية، ونترك للقاريء تحديد حجم علامات التعجب والاستفهام لكن يبقي استفهام بسيط تماما: من يهتم بزيارة المقدسات اللوطية؟ وما الرأي الآن في ضوء بحثنا هذا؟].

وكما ترافق ذكر (عمورة) مع (سدوم) في التوراة، فقد ترافق ذكر قرية أخري مع (ثمود) في القرآن، هي ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد. عاد إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾، فهل تشير (عاد) هنا إلي (عمورة)؟ وهل يمكننا أن ننزعها بدورها من تحت البحر الميت الفلسطيني، لنضعها علي خريطة اليمن؟

إن أول مايدعم هذا الطرح، ماجاء عند (ياقوت) فى معجمه وأن منازل عاد كانت بالأحقاف[2]، والأحقاف كما هو معلوم بأرض اليمن، كما جاء عند (ابن قتيبة) في كتاب المعارف القول: «وكانت عاد ثلاث عشرة قبيلة، بالدو والدهناء وعالج ويبرين ووبار إلي عمان وحضرموت»[3]، وكلها ضمن بلاد اليمن تحسب.

---

١ – نفسه : ص١٢١ ، انظر أيضا المسعودي : مروج الذهب ، طبعة المكتبة الإسلامية .ج٢.ص٢٩٥ .

٢ – ياقوت الحموي : معجم البلدان ... ج٤ ،ص١٠٢٧.

٣ – ابن قتيبة : كتاب المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف ، القاهرة ، ج٢ ١٩٦٩ ، ص١٥.

ويقدم لنا (الطبري) وصفا للكارثة، مستفيدا من روايات الجاهليين المتوارثة، فيقول: إن الكارثة جاءت علي شكل سحابة سوداء هائلة، صحبها نداء من السماء للخاطئين: «اخترتم رمادا رمدا، لاتبقي من عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته همدا» [1] ولعل من الواضح أنه ليس ثمة تفسير لهذه المشهدية المفجعة إلا ثورة بركانية، نشرت سحابها الأسود القاتل رمادا رمدا، حتي أن الريح كانت ـ كما يقول الطبري ـ تدخل تحت الواحد منهم فتحمله ثم ترمي به فتدق عنقه.[2]

وينقل (نعمة الله الجزائري) عن أبي جعفر قوله: «الريح العقيم تخرج من تحت الأرضين السبع»[3]، وهل يخرج من تحت الأرض بهذا التصوير سوي البراكين؟ أما (ابن كثير)فيقول عن هلاك ثمود: «جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة شديدة من أسفلهم»[4]، وهل الصيحة إلا صوت دوي الانفجار؟ وهل الرجفة الشديدة من أسفلهم إلا تزلزل الأرض المصاحب للثورة البركانية؟ ثم إن القرآن يخبر كيف دمر الله الشعب اللوطي، فيقول: ﴿وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ ـ ٨٤ ـ الأعراف. وتوضح لنا طبيعة هذا المطر آيات أخري تقول: ﴿وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾ ٧٤ ـ الحجر. والتعبير «حجارة من سجيل» أصدق وصف لحجارة نارية منصهرة!!

أما أكثر مايدعم رأينا هنا، فهو ماعثرنا عليه عند المسعودي، وهو يتحدث عن غرائب الأرض، فيذكر أمرا كان لم يزل يحدث حتي عصره في بلاد اليمن، فيحكي عن «أطمة وادي برهوت، وهي نحو بلاد سبأ وحضرموت من بلاد الشحر، وذلك بين بلاد اليمن، وبلاد عمان وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة، تقذف من قعرها بجمر كالجبال، وقطع من الصخور سود، حتي يرتفع ذلك في الهواء، ويدرك حسا من أميال كثيرة، ثم ينعكس سيلا فيهوي إلي قعرها وحولها، والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت، وقد أحالها **الي سواد** حرارة النار».[5]

ثم هناك روايات متواترة عند العرب، عن نيران قديمة كانت تخرج من الأرض،

---

١ – ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف القاهرة، ط٣،ج١ ،ص٢٢١

٢ – نفسه : ج١ ،ص٢٢٤

٣ – نعمة الله الجزائري : النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين مؤسسه الأعلمي، ببيروت ط٨، ١٩٧٨ ،ص٩٨

٤ – ابن كثير : البداية والنهاية.،ج١ ،ص١٢٩

٥ – المسعودي : مروج الذهب ،طبعة المكتبة الإسلامية ،ج١ ،ص١٨٦

مثل نار الحرتين، التي قيل في وصفها: «وكان يخرج منها عنق فيسيح مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، لاتمر بشيء إلا أحرقته»[1]، وروايات أخري عن نبي عربي من أنبياء الفترة، مابين المسيح ومحمد (صلي الله عليه وسلم) اسمه (خالد بن سنان)، تقول: «هو الذي أطفأ النار التي خرجت بالبادية، كان يري ضوؤها من مسافة ثماني ليال، وربما كان يخرج منها العنق فيذهب في الأرض، فلايجد شيئا إلا أكله، فأمر الله تعالي خالد بن سنان بإطفائها».[2]

والواضح في كل هذه الروايات مواصفات لاتتطابق إلا مع الثورات البركانية، ولا مراء أن الدلالة الجيولوجية تأتينا من الأحجار البركانية السوداء، المنتشرة بتلك البقاع، إلي اليوم، وفي أجزاء أخري من جزيرة العرب ويطلقون عليها اسم (الحرات) من «الحرارة»، وفي سيرة (ابن سيد الناس): «أن الحرة هي الأرض ذات الحجارة السوداء»[3]، وقد ظلت أحجار تلك الحرات عند عرب الجاهلية، أحجارا مقدسة لزمن طويل، تصوروها أثر السلف الصالح الفلاني، ووضعوها في مزاراتهم، وحجوا إليها تبركا، ويبدو أن المنطقة ظلت موردا لاينفد لمثل تلك الأحجار، التي كانت تستجلب لتوضع في المحاريب المقدسة، واستمر ذلك بعد الإسلام وحتي اليوم، ويوجد منها في مصر كثير، يتناثر بالعشرات في أضرحة الأولياء، علي أنها في الخيال الشعبي (أثر النبي) بينما حقيقتها المفزعة والمروعة، أنها كانت خطو الهاربين من الدمار البركاني فوق الصخر الطري، إنها فعلا آثار أسلاف، لكن من العرب البائدة، ذلك التعبير الذي أطلقه المؤرخون العرب والمسلمون، ومن قبلهم الجاهليون، علي أمم لم يعد لها وجود، لكنهم كانوا متأكدين أنها قد وجدت في سالف الأزمان، فأسموها (العرب البائدة)، فما أبلغه تعبيرا عما حدث!

ولو أردنا التحديد الدقيق للموقع الذي عاش فيه شعب عاد، فإنه من الأفضل الرجوع إلي المصدر الأقرب لمعايشة هذا التراث، فيقول: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾ ٦ ـ الفجر، والمعني أن (عاد) قد عرفت كاسم لمدينة، وأن هذه المدينة قد حملت اسما هو (إرم) الذي يبدو لنا ناتجا عن تواجد النسل الإسماعيلي في المنطقة، موروثا عن الأب الآرامي (إبراهيم)، ووصفت بأنها (ذات العماد) تلك الصفة التي ستضع يدنا علي الموضع الصحيح فيما نرجو.

---

١ – محمود الحوت: في طريق الميثولوجيا ... ص١١٨

٢– السيرة الحلبية : ج١ ،ص٣٤

٣ – ابن سيد الناس: عيون الأثر.، ج١ ،ص١٠٠

وقد أشار الجغرافي (بطليموس) إلي موقع مدينة في العربية الجنوبية القديمة، باسم (أرماو)(١)، وإلي اليوم لم يزل قائما في مدينة مأرب اليمنية - وهي الآن منطقة أثارية - أطلال معبد قديم بني من الصخر يعرف باسم معبد (أوام) ونستفيد هنا من تأريخ (أحمد شرف الدين) لليمن قوله: **إن أوام كان اسما لقبيلة سكنت اليمن!**(٢)

وبعد لأيٍ وجهد، تمكنت من التقاط سر المسألة، في معبد مجاور يقع غربي معبد (أوام) ويعرف حاليا باسم (العمايد) واللفظ (عمايد) عربي قديم، أطلق علي هذا المعبد في العصر الجاهلي، لأن المعبد كان يقوم علي أعمدة صخرية، لم يزل قائما منها حتي اليوم خمسة أعمدة، وكان العمود حسب ترجمة النصوص اليمنية القديمة يسمي (أوام) ومن ثم تترابط المسألة وتتسق، إذا ما اعتبرنا معبد (أوام) هو معبد (أرام) القديمة، ولنلحظ أن قراءة النقوش المسندة لم تزل تحمل لبسا وأخطاء عديدة في قراءتها، ولم يقر أي من الآثاريين بمصداقية قراءته التامة، ومن ثم نفترض أن معبد (أوام) هو معبد (أرام) أو (إرم) التي تسمي الآن (العمايد)، وعليه تصبح (إرم) هي مدينة شعب (عاد) أما العمايد فتفسر لنا الوصف القرآني لعاد، بأنها (ذات العماد).

ولابأس هنا من الإشارة إلي أنه في بلاد اليونان، قبل العصر الكلاسيكي، كانت عبادة الإله (هرمس Hermes) تقترن بتوقير أحجار مقدسة تدعي (هيرما) أو (إرما) وهي مشتقة من كلمة (Erma) التي كانت تعني (صخرة) أو (عمود) ممايستدعي (العمايد) اليمنية، و(المسلات) المصرية، والاسم هيرمس نفسه يعني: العمود أو الصخرة، وفي اللغة العربية (الإرم) يعني الصخر.(٣) وهذه اللغة ذاتها هي التي أطلقت بلسانها علي الأبنية الصخرية في الجيزة المصرية اسم (أهرام) جمع (هرم)، و(هرم) لاتبعد كثيرا عن (إرم)، بل إن العربية تستبدل (الهاء) و(الهمزة أو الألف) فتقول: (أريق) الماء، و(هريق) الماء فالهرم ايضاً إرم .

أما اليونان فكانوا أكثر شعوب حوض المتوسط، تأثرا بالمصريين، وبالعبادات المصرية، وقد اقترنت عبادة (هرمس) بعبادة (أمين) المصري، وهنا لامندوحة من الوقوف مع الحكمة القرآنية، التي استدعت ربط المصريين أصحاب الأهرام والمسلات، بعاد ذات الإرم والعماد، وقول الآيات: ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد.

---

١ - د. عبد الله نبهان : هوامشة علي كتاب ياقوت الحموي (معجم البلدان): المختار من التراث العربي ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمش ١٩٨٣ ، السفر الثاني ، القسم الأول ، ص٥١

٢- أحمد حسين شرف الدين: تاريخ اليمن الثقافي ...، ج٢ ،ص٢٠.

٣ - علي الشوك : اهتمامات ميثولوجية واستطرادات لغوية، الكرمل ، مؤسسة بيسان ، نيقوسيا، عدد ٢٦ ، ١٩٨٧، ص٣٣.

التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. **وفرعون** ذي الأوتاد﴾ ٦ :١٠ـ الفجر. ولنلحظ: الذين جابوا الصخر بالواد، وذي الأوتاد أو الأعمدة.

وإذا كانت القرية المرافقة لسدوم بالتوراة تسمي (عمورة) فإن حرفي العين والهمزة يتبادلان، فتصبح (عمورة) (أمورة) وبالقلب تنطق (أرموه) أو (أرماو) وفي ذلك تذكرة ببلدة (أرماو) التي ذكرها بطليموس أو (إرم) التي ذكرها القرآن الكريم.

أما آخر شواهدنا علي علاقة النبي إبراهيم باليمن، فهو تسمية القرآن الكريم لأبيه باسم (آزر)، وقد علمنا مخالفة التوراة ذلك، بالقول إنه إبراهيم بن تارح، وتفيدنا أبحاث الآثاري (كانالكيس) أحد أهم الأركيولوجيين، في آثاريات اليمن القديم، أن أهم الأسر التي قامت بالوظيفة الدينية، وذكرتها النقوش هناك أسرة تحمل اسم (حذفر) ونظن (حذفر) هي الأصل في (آزر) وربما سقط حرف (ف) بالتخفيف بمرور الزمن، كما نجد عنده أيضا أن كبار رجال الدين كانوا يحملون لقب (ذو خليل)[١]، وإذا كان (كانالكيس) لم يلحظ العلاقة بين هذه الأسماء وبين النبي إبراهيم، بحسبانه جميع قصص التوراة تدور في فلسطين، فلسنا هنا بحاجة للتذكير بصفة النبي إبراهيم (عليه السلام) في التوراة وفي القرآن (الخليل)، ممايشير إلي علاقة النبي إبراهيم بالوظيفة الدينية الأساسية في اليمن القديم.

ثم نجد في نصوص يمنية أخري عبادة الإله باسم (ها ـ رحيم)، وقد ورد في النصوص السبئية بشكل متواتر، كما ورد أيضا باسم (الرحمن)[٢]، وفي ذات النصوص تأكد العثور علي اصطلاح (حنيف) عدة مرات[٣]، كما أصبح معروفا أن عبدة رحمن اليمن كانوا يعرفون باسم الحنفاء، وسبق لنا في كتابنا (الحزب الهاشمي) أن ذهبنا إلي حسبانهم أصل المبدأ الذي انتشر في جزيرة العرب قبل الإسلام بزمن قصير، والمعروف بالحنيفية، مستفيدين في ذلك من كتابات مهمة وموثوقة.[٤]

وإعمالا لكل ذلك يمكننا القول إن (عاد) ورفيقتها (ثمود) أو (عمورة)، ورفيقتها

١- يقول (رودو كانالكيس) : إن اللقب خليل هو لقب حكومي بمعني زعيم قبيلة يمنية ومعلوم أن زعيم القبيلة كان يقوم بمهام الكاهن أيضا، ويساويه في الشمال لقب كبير، وكان مركزا دينيا في سبأ خاصة، وكان يدل علي كاهن قرابين الاستسقاء التي كانت تقدم لعثتر، وفخذ خليل كانوا يرثون الكهانة من نسل حذفر، انظر التاريخ العربي القديم .. ص١٢٨ ،ص١٤١.

٢- منقوش : التوحيد يمان ...، ص١٥٦

٣- نفسه: ص٤١

٤- سيد القمني : الحزب الهاشمي ، دارسينا

(سدوم) كانتا في جنوب جزيرة العرب، موطنا سكنه (لوط) الذي كان رفيق عمله المرتحل دوما، والجوّاب دوما، والذي وصفته التوراة بالقول: «أراميا تائها كان أبي»، النبي إبراهيم (عليه السلام)، وهو مايضع آخر مابيدنا من لبنات في دعم أطروحاتنا، حول وجهة النبي إبراهيم بعد خروجه من مصر، وقفزت التوراة فوقه، لكن تفاصيله تساقطت علي صفحاتها، ونزلت في غير مواضعها الصحيحة من السياق، لكن علاماتنا الشاهدة التي جمعناها، خلال ثلاث سنوات انصرمت مذ بدأنا التفرغ الكامل لبحثنا هذا، تلاصقت و اتسقت بما لاسبيل إلي نقضه إلا بنسق مماثل يحمل أدلة ناقضة، علي نفس القدر من الدلالة والشهادة.

وهنا قد يجابه أطروحاتنا في هذا القسم الأخير من الدراسة رد حاسم يقول: إننا قد خلطنا الأمور، فحسبنا لوطا نبيا لعاد وثمود، بينما القصة القرآنية تشير إلي أن الله قد أرسل إلي (عاد) نبيا عربيا هو (هود)، وأرسل إلي (ثمود) نبيا عربيا آخر هو (صالح)، ولما كذبوا الرسل أهلكوا عبرة للمكذبين، لكننا نحيل هذا الرد إلي كتبنا التراثية، التي تؤكد أن هذه المدن قد أهلكت مرتين، وأن هناك عادا أولي وعادا ثانية، وأوثقهم في ذلك زعيم طبقة كتاب الأخبار والسير، (الحافظ ابن كثير الدمشقي)، الذي أكد أن عادا الأولي كانت قبل الخليل إبراهيم، أما عاد الثانية فقد أهلكوا بسحابة نارية (وهو ما زعمناه ثورة بركانية) بينما أهلكت عاد الأولي بريح صرصر عاتية[١]، إضافة إلي إجماع الإخباريين علي أن (هود) قد أرسل إلي عاد الأولي.[٢]

وقد يردنا آخر بما ذهب إليه البعض: أن ثمود تقع شمالي الجزيرة بينما عاد تقع جنوبها، لكن الرد مردود سلفا لأسباب أهمها أن ثمود لم تزل علما حتي اليوم، في الجنوب اليمني، وإلي الجوار منها موضع آخر لم يزل يحمل إلي اليوم اسم (قبر هود)، وقد روي أمير المؤمنين علي، أنه ذكر صفة قبر هود في بلاد اليمن[٣]، ثم إن الآيات الكريمة المتفرقة بالقرآن، كانت تربط أينما وردت بين عاد وثمود، ممايشير إلي وحدة الرقعة الجغرافية، وقد أكد القرآن الكريم أن منازل عاد كانت باليمن في قوله: ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ ٢١ ـ الأحقاف، ولا أحقاف إلا باليمن.

وآخر مايمكننا قوله في موضوعنا هذا: هو أن متابعة خط السير الحقيقي لرحلات النبي إبراهيم، قد أضاء لنا مناطق قاتمة في التاريخ، وبعضها كان في ظلام

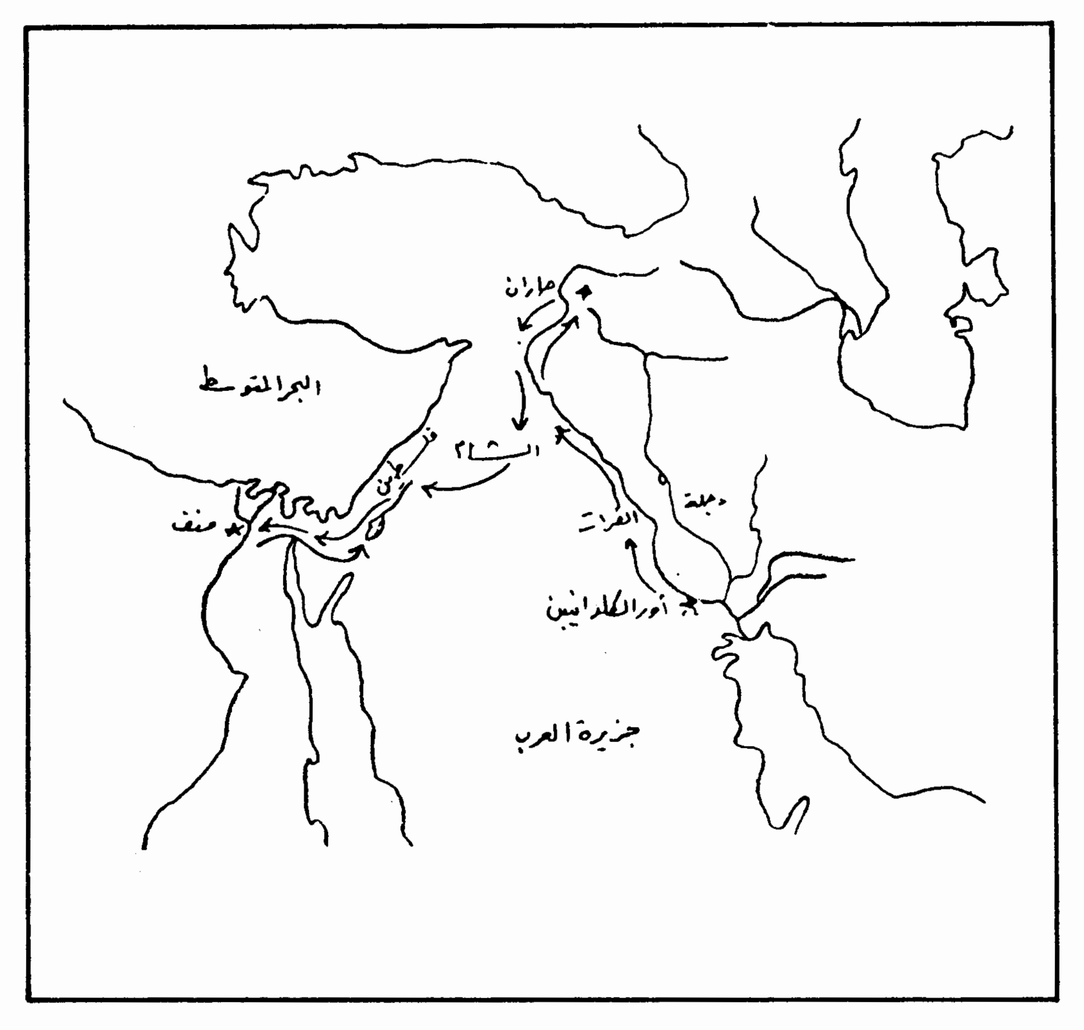
---

١ – ابن كثير : البداية والنهاية ...، ج١، ص١٢١

٢ – منقوش : التوحيد يمان ...، ص٢٢.

٣– محمد الفقي : قصص الأنبياء والمرسلين ، أحداثها وعبرها تقديم شيخ الأزهر عبدالحليم محمود ، مكتبه وهبة، القاهرة ط١، ١٩٧٩، ص٥٢,٥٣.

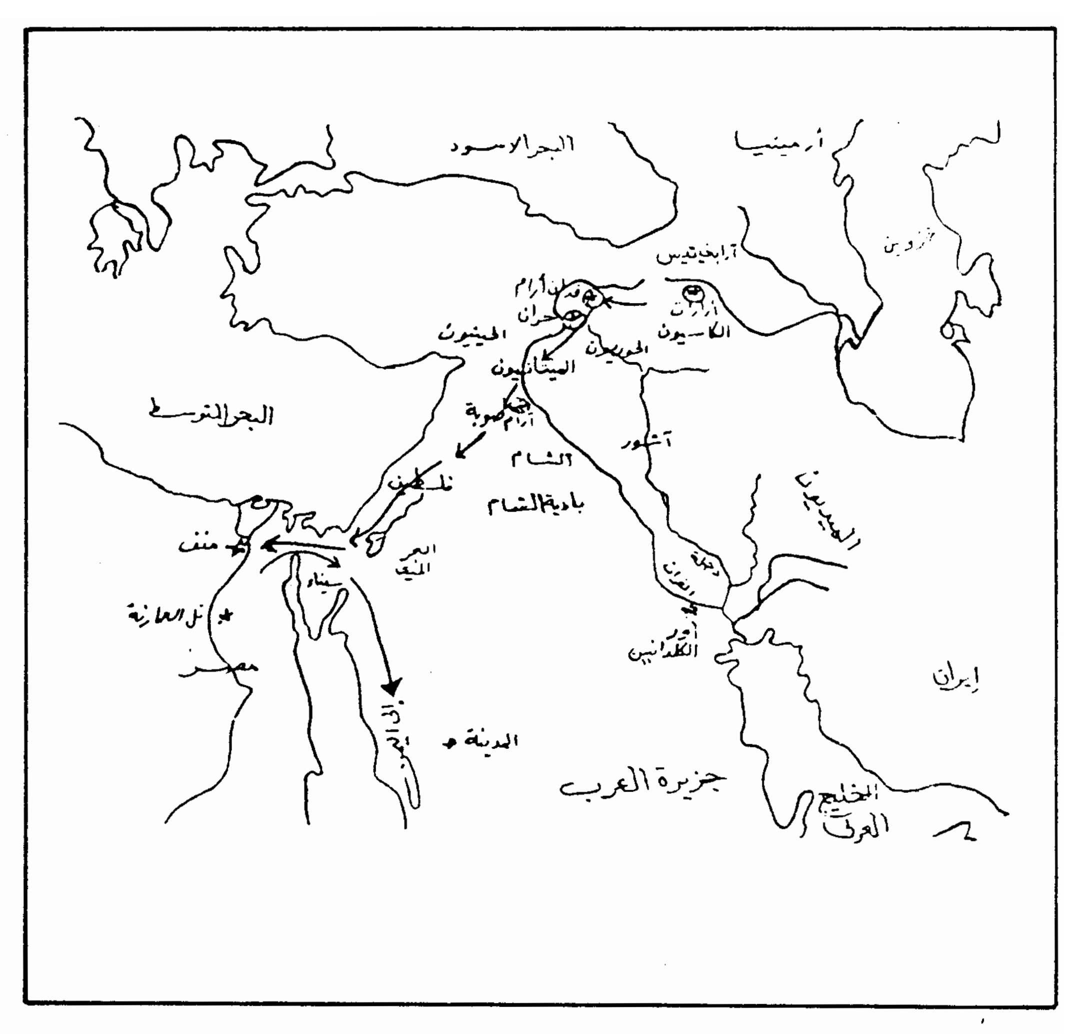
دامس نحسبه مقصودا، ونترك كشف القصد لجهد آخر، وربما لباحث آخر له مقاصد أخري. أما نحن، فلوجه الحق قصدنا السبيل، واجتهدنا قدر مانملك من قدرة، حتي وقفت حدود الجهد عند هذا الحد، وربما تمكنا من استجماع الاستطاعات مرة أخري لجهد يكمل، أو ربما لجهد ينقض، لانعلم؟ فالحقيقة مطلب لايطلب الثبات تعنتا، وإنما تمكنا فإذا دالت الشواهد ودل جديد، فلامفر من التجديد.



الخريطة رقم١

خط سير الرحلة الإبراهيمية عند الباحثين

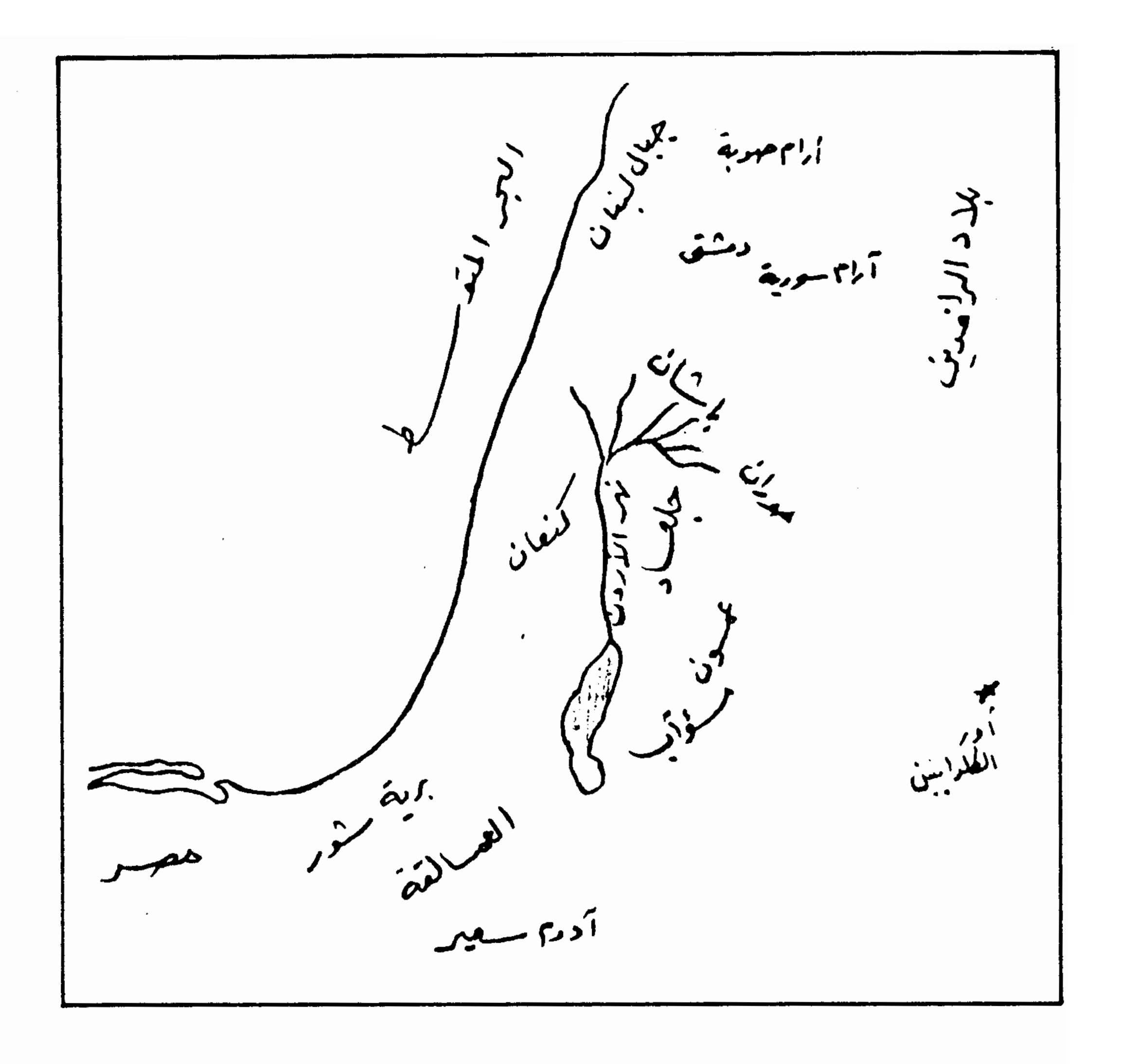
- الانطلاق من «أور الكلدانيين» جنوب الفرات.
- الاتجاه شمالا بحذاء الفرات وربما بالإبحار فيه إلي حاران في أقصي الشمال.
- العودة إلي الجنوب الغربي بغرض استيطان كنعان (فلسطين).
- الهبوط من فلسطين إلي مصر.
- العودة من مصر إلي فلسطين.



الخريطة رقم ٢

السير وفق فروضنا

- الانطلاق من «أور أرتو» جنوب أرمينيا في المنطقة الكاسية.
- الهبوط إلي الجنوب متخللا بلاد الحور.
- الاستمرار جنوبا إلي فلسطين.
- الهبوط من فلسطين إلي مصر.
- الخروج من مصر إلي جزيرة العرب حيث مصر الأقصي أو اليمن.

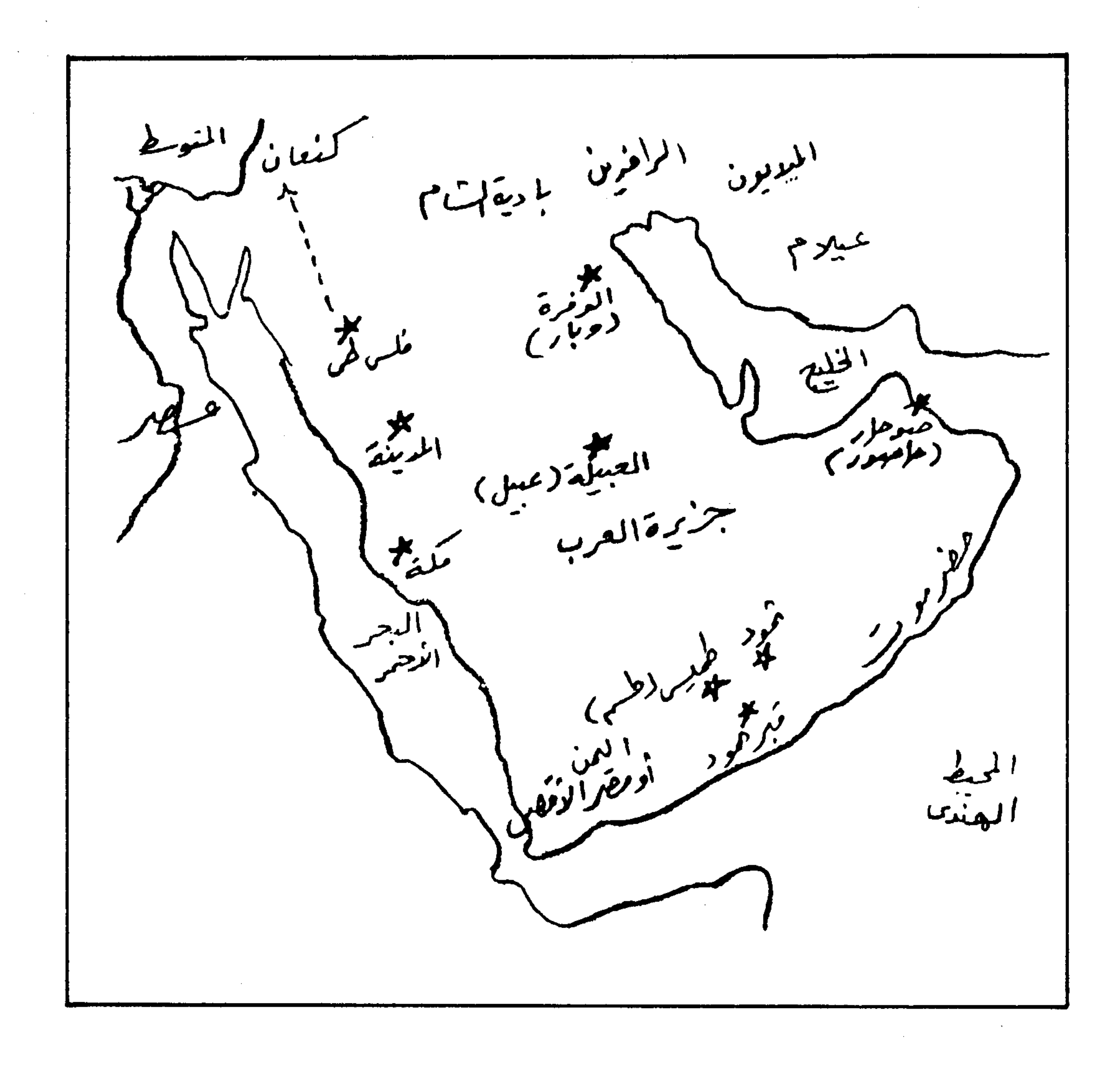


الخريطة رقم ٣

الخريطة المرفقة بالتوراة

– لاحظ أن راسم الخريطة قد حيرته مسألة (شور)!! التي في طريق مصر.. فتخير للاسم موضعا مناسبا وضعه علي مدخل سيناء!

– لاحظ أنه جعل حاران هي حوران لتقع علي الطريق المباشر والمختصر بين أور الكلدانيين وبين كنعان حلا للمشكلة!!



الخريطة رقم ٤

العرب البائدة

مصادر البحث

١ ـ القرآن الكريم.
٢ ـ الكتاب المقدس.
٣ ـ الموسوعة العربية الميسرة.
٤ ـ موسوعة تاريخ العالم: تأليف مجموعة علماء بإشراف وليم لانجر، ترجمها مجموعة أساتذة بإشراف د. مصطفي زيادة. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة. د.ت.
٥ ـ الموسوعة الأثرية العالمية: تأليف مجموعة علماء بإشراف ليونارد كوتريل (٤٨ عالما) ترجمة د. محمد عبد القادر ود. زكي اسكندر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧.
٦ ـ الأصفهاني (حمزة): تاريخ سني الملوك بيروت، ١٩٦١.
٧ ـ ابن حبيب (أبو جعفر): المحبر، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
٨ ـ ابن خلدون: طبعة بولاق، ١٢٨٤هـ.
٩ ـ ابن سيد الناس: عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تحقيق لجنة التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت. ط٢، ١٩٨٠.
١٠ ـ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق مجموعة اساتذة، دار الكتب العلمية بيروت ط٤، ١٩٨٨.
١١ ـ ابن قتيبة: كتاب المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩.
١٢ ـ ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرءوف، شركة الطباعة الفنية، القاهرة، ١٩٧٤.
١٣ ـ أورسيوس (بول): تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة في منتصف القرن الرابع الهجري، حققها وقدم لها د. عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط١، ١٩٨٢.
١٤ ـ باقر (طه): الوجيز في تاريخ حضارة وادي الرافدين، دار الشئون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام العراقية، بغداد ١٩٨٦.
١٥ ـ برستد (جيمس هنري): كتاب تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلي الفتح الفارسي، ترجمة، د. حسن كمال وزارة المعارف المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٢٩.
١٦ ـ البهبيتي (نجيب): المعلقة العربية الأولي عند جذور التاريخ، دار الثقافة،

الدار البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨١.
١٧ ـ الثعلبي (أبو إسحق): قصص الأنبياء المسمي عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
١٨ ـ جاردنر (السير آلن): مصر الفراعنة، ترجمة د. نجيب ميخائيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٧.
١٩ ـ جرني (أ.ر): الحيثيون، ترجمة د. محمد عبد القادر، سلسلة الألف كتاب، القاهرة، ١٩٧٣.
٢٠ ـ الجزائري (نعمة الله): النور المبين في قصص الأنبياء والمرسلين، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٨، ١٩٧٨.
٢١ ـ حسين (د. طه): في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٢٦.
٢٢ ـ الحلبي (برهان الدين): السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون، انسان العيون، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
٢٣ ـ الحموي (ياقوت): معجم البلدان
٢٤ ـ الحوت (محمود سليم): في طريق الميثولوجيا عند العرب، دار النهار، بيروت، ط٢، ١٩٧٩
٢٥ ـ ذكري (انطوان): مفتاح اللغة المصرية القديمة، دار الشروق، القاهرة، د.ت.
٢٦ ـ الرازي (الفخر): تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٧٥.
٢٧ ـ رايفشتال (اليزابيث): طيبة في عهد أمنحوتب الثالث، ترجمة إبراهيم رزق مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧.
٢٨ ـ رودلف (فلهلم): صلة القرآن باليهودية والمسيحية، ترجمة عصام الدين حفني ناصف، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٨٤.
٢٩ ـ السهيلي (أبو القاسم): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، ضبط وتعليق طه عبد الرءوف، بيروت د. ت.
٣٠ ـ سوفوكليس: الملك أوديب، ترجمة أمين سلامة، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.
٣١ ـ شرف الدين (أحمد حسين): تاريخ اليمن الثقافي، مطبعة الكيلاني الصغير، القاهرة، ١٩٦٧.
٣٢ ـ الشوك (علي): اهتمامات ميثولوجية واستطرادات لغوية، الكرمل، مؤسسة بيسان، نيقوسيا، ٢٦.

٣٣ ـ صالح (عبد العزيز): الشرق الأدنى القديم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٦٧.
٣٤ ـ صليبي (د. كمال): التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العلمية، بيروت، ط٢.
٣٥ ـ طعيمة (د. صابر): التاريخ اليهودي العام، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٨٣.
٣٦ ـ عبد الحميد (محمد حسني): أبو الأنبياء إبراهيم الخليل، تقديم الشيخ حسين مخلوف مفتي الديار المصرية الأسبق، دار سعد، القاهرة، ط١، د.ت.
٣٧ ـ علي (د. جواد): المتصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين بيروت، ط٢، ١٩٧٨.
٣٨ ـ الفقي (محمد): قصص الأنبياء والمرسلين، أحداثها وعبرها، تقديم شيخ الأزهر عبد الحليم محمود، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٧٩.
٣٩ ـ القرطبي (شمس الدين): التذكرة في أحوال الموتي وأمور الآخرة، تحقيق حجازي والسقا، المكتبة العلمية، بيروت.
٤٠ ـ القمني (سيد محمود): القمر الأب أو الضلع الأكبر في الثالوث، الكرمل، مؤسسة بيسان، نيقوسيا، قبرص، ٢٦.
٤١ ـ القمني (سيد محمود): إلهة الجنس أو الزهرة، آفاق عربية، بغداد، مارس ١٩٨٢.
٤٢ ـ القمني (دسيد محمود): البعد الأسطوري للشيطان في التراث الشرقي، فكر للدراسات والأبحاث، القاهرة، ١٠.
٤٣ ـ القمني (سيد محمود): هل بني الفراعنة الكعبة؟ تصحيح مغالطات!، مجلة القاهرة، عدد ٨١، مارس ١٩٨٨.
٤٤ ـ القمني (سيد محمود): أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة، دار فكر القاهرة، ١٩٨٨.
٤٥ ـ القمني (سيد محمود): الحج، مجلة الكويت، الإعلام الكويتية، عدد ١٢، ١٩٨١.
٤٦ ـ القمّي (الصدوق): علل الشرائع، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٦.
٤٧ ـ كارلوفسكي (س. لامبرج): دلمون مدخل إلي الخلود، ترجمة مصطفي كامل اللحام، مجلة الثقافة العالمية، الكويت، مارس، ١٩٨٣.

٤٨ ـ كانالكيس (رودو): التاريخ العربي القديم، ترجمة فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

٤٩ ـ كُريم (د. سيد): قدماء المصريين وبناء الكعبة، مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٨٢.

٥٠ ـ لسنر (د. ايفار): الماضي الحي: ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.

٥١ ـ ماير (د.ف.ب): حياة النبي إبراهيم وطاعة الإيمان، ترجمة القس مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٠.

٥٢ ـ المسعودي (أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المكتبة الإسلامية بيروت، د. ت.

٥٣ ـ منقوش (ثريا): التوحيد يمان، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٧.

٥٤ ـ موسكاتي (سبتينو): الحضارات السامية القديمة، ترجمة د. يعقوب السيد بكر، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٧.

٥٥ ـ ناصف (عصام حفني): اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج، بيروت، ١٩٨٥.

٥٦ ـ نبهان (د. عبد الله): هوامش علي كتاب ياقوت (معجم البلدان)، في المختار من التراث العربي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٨٣.

٥٧ ـ نيلسن (ديتلف): تاريخ العلم ونظرة حول المادة، في كتاب التاريخ العربي، القديم ترجمة د. فؤاد حسنين مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

٥٨ ـ نيلسن (ديتلف): الديانة العربية القديمة، في كتاب التاريخ العربي القديم ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

٥٩ ـ هومل (فرتز): التاريخ العام لبلاد العرب الجنوبية، في كتاب التاريخ العربي القديم، ترجمة د. فؤاد حسنين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥٨.

60-De vaux (R.), les Patriarches Hebreus et L.Histoire Revue Bibique, 72 (1925).

61-Noldeke, Semitic Languages, Encyclopaedia.
Britanica,2.the d, 1911, vol 24, coll 617-630

62-Philipy (H.B) The Background of Islam Being a sketch of Arabian pre Islamic time, Alexanderia,1947.

63-Rykmans (cyanzague), les nams propres Sudsemitiques, Lavain,1934.

من أعمال المؤلف

أولا: كتب منشورة

١ ـ الموجز الفلسفي: دار السياسة، الكويت، (نفد).
٢ ـ مشكلات فلسفية (بالمشاركة مع آخرين): التربية، الكويت.
٣ ـ أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة: دار فكر، القاهرة
٤ ـ الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية: القاهرة
٥- النبي إبراهيم والتاريخ المجهول.
٦- الأسطورة والتراث.
٧- حروب دولة الرسول (الجزء الأول).
٨- قصة الخلق : منابع سفر التكوين.
٩- إسرائيل: التوراة، التاريخ، التضليل.
١٠- رب الزمان.
١١- حروب دولة الرسول (الجزء الثاني).

ثانيا: قيد البحث

النبي موسى وآخر أيام تلل العمارنة.